

عبدالعزيـز جـادو

كيف اوفق الى العمل المناسب ؟

بقلم عبدالعزيز جادو

* * *

من الامور التي تبعث على التعجب والاستغراب ذلك العدد الكبير من الرسائل التي ترد الي يسالني فيها اصحابها هذا السؤال الذي جعلت منه عنوانا لهذا المقال . ومن المشاهد ان اكثر العاملين يبدون سخطهم وتبرمهم من الاعمال التي يزاولونها ، ويخيل الى الفرد منهم ـ رجلا كان او امراة ـ انه بلغ غاية الكمال ووصل الى اعلى درجة من العلم والثقافة ، ومن ثم سيكون سعيدا الى اقصى حدود السعادة اذا التحق بعمل اخر غير عمله الحالي الذي يشغله . اما ماذا يمكن ان يكون هذا العمل الاخر ، فهذي هي المشكلة !.

ان امثال هؤلاء الناس الذين يستنفدون طاقة تفكيرهم في هذه الامور يستيقظون في الصباح وهم في حالة من الخوف والوجل من اليوم الذي سيأتي عليهم ، ويتجدد الخوف والوجل مع صبح كل يوم جديد . فتصبح الحياة بالنسبة لهم رتيبة مملة ، تسير على وتيرة واحدة ، وتمضي متأنية على نسق واحد ، فسرعان ما ينساقون مع التيار على غير هدى ، ويستسلمون الى التفكير المذل ، ويغوصون عميقا في حماة مضنية .. « آه لو امكنني ان اوفق في التوصل الى اسلوب العمل الذي يناسبني .. كم اكون سعيدا حينذاك ! » وما ينفكون يبحثون عن دليل للحرف عند كل من يعلل النفس بالفرج . ولكن الفرج لا يحقق املا ولا يشفي غلة . وان شخصا متمكنا من نفسه وعلى قدر كبير من الحذق والفطنة قد يستطيع ان يمدهم بفكرة فيما يتعلق بما يليقون له او بما يناسبهم ، ويسدي اليهم النصح بما يفيدهم في حياتهم ، ولكن غالبا ما يكون هؤلاء الناس سلبيون الى اقصى حدود السلبية في تأثرهم بهذا المرشد او الدليل ويمر العام بعد العام وما يزالون في نفس الورطة.

وثمة نسبة معينة من هؤلاء الناس لهم همة وغيرة ، وفيهم جد واجتهاد . وانهم ليرغبون رغبة اكيدة في البحث عن معين ، فاذا ما استوثقوا من صحة الشيء وايقنوا من انه قائم في وضعه الصحيح ، ومن انه ثابت على اساس سليم ، بذلوا جهدا كبيرا لعمل التغييرات اللازمة . وثمة طراز اخر تكونت لديه عادات الكسل والخمول ، وعنده رغبة فاترة لاصلاح حاله ، وتحسين نفسه ، ولكن هذه العادات المضعفة لا تسمح له بذلك ، فهي دائما تجعله يؤجل الى الغد ما يمكن عمله اليوم .

والطراز الكسول ينشد باستمرار وعلى الدوام الطريق السهل الذي يغيِّره بقدرة قادر من حال الى حال دون ان يبذل اي مجهود . ويود هؤلاء الناس لو كان في امكانهم ان يذهبوا الى منوم مغنطيسي ليوحي اليهم ببعض ايحاءات تجعلهم ينصرفون من لدنه وقد تغيروا تماما . ولكن هيهات ان تحدث مثل هذه المعجزة .

جاءني ذات يوم شخص من هذا الطراز الاخير لمساعدته. جاء والرجاء يحدوه والامل يملؤه ، وبعد ان ايقظت فيه روح الهمة ، وملأته حماسة وحمية ، ونبهت رغباته ، وعدني بأن يخرج من عندي ليقيم الدنيا ويقعدها ، ولكنه للاسف لم يفعل شيئا البتة . وحين لقيته بعد ذلك سألته عما اذا كان قد التحق بعمل احسن من الذي كان يزاوله ؟ فاجابني بان شيئا ما كان يتدخل في شؤون حياته ، وما كان هذا الشيء في الواقع الا مجرد عذر يتذرع به ليساعد وجدانه ويسعف ضميره . فلقد كانت عاداته راسخة عميقة الجذور ، لانه اضاف الى عادة الكسل والخمول عادة الخجل والحياء . وانني شخصيا اشعر بأسف عميق لهذا الشخص ، وسأعمل جهدي لتغيير وجهة نظره .

لقد علمتني تجاربي الكثيرة ان المتاعب كلها في مثل هذه الحالات انما تكمن في ذوات الاشخاص ، وهي تنشأ عن الافتقار الى فهم وادراك وايمان مما يجلب الشك والارتياب الى عقولهم . و « الشك » هو الذي يقيم امامهم سدا منيعا لا يستطيعون اجتيازه .

وهؤلاء الناس لا يستطيعون ابدا ان ينبوا قوى عقلهم او فكرهم او حكمهم او تخيلهم او ايمانهم بالقدر الضروري الذي يمكنهم من القيام باعمال او اشياء لها قيمتها في الحياة . انهم يقعون فريسة لاحلام اليقظة وشرود الذهن ـ انهم مجرد مفكرين ، لا عاملين .

ولا يزال ثمة طراز اخر لا يمكن بأية حال ان يحصل على النجاح ، يتمثل في ذلك الشخص الذي يخاف الافراط في العمل ، من ان يؤذي نفسه ويضر بصحته . وهـذا

الخوف ليس له مبرر اطلاقا ، فهو شيء مخالف للعقل ، واني ارى ان الناس انما يدركهم التعب من عمل صغير جدا اكثر مما ينتابهم من عمل كثير جدا . والعقل الناشط **يجب ان يشتغل ويعمل بطريقة فعالة** ، وان يكون في عمله بناء ، انشائيا ، والا فسيغدو مستبطنا من صفاته التخريب **والتدمير . والرجل الذي يخاف من الافراط في العمل** انما يكوئن عادة الاستبطان التي من شأنها تغدو شيئــا فشيئا من المنغصات التي تزيد في مضايقته .

ولقد زارني شخص يبلغ من العمر ٣٢ سنة وكان ناجحا في باكورة جهوده الجادة ، القوية . ومنذ حوالي سنتين تقريبا بدأ في تكوين فكرة مؤداها انه في حالة ما اذا كان يمكنه ادخار مبلغ كبير من المال فانه يتكاسل ولا يشتغل **كثيرا . ولكن عقله الذاتي ، النشيط ، لم يتوقف عـن** العمل ، حتى ظهرت عليه بعد لاي حالة من حالات التامل الباطني جعلته يعاني شيئا من ضعف الاعصاب . وانه الان يكافح كفاح المستميت للشفاء من هذه الحالة ، ولا بد انه سيتغلب بالتدريج على ضعفه هذا حتى يسيطر على نفسه تمامــــا .

اذكر ان الحياة حركة . ونحن لا يمكن ان نتوقف عن الحركة او نظل في حالة سكـــون . ان عقولنا وجميع **الوظائف المختلفة التي فينا انما تؤدي** عملهـا باستمرار وبدون انقطاع . واذا انت اخفقت في توجيهها بطريقة انشائية ، بناءة ، فلا بد من ان يجرفك التيار الى حال غير طبيعية ستجد فيها الكثير من المتاعب . ويتحقق هذا على الخصوص عند الشخص الذي تميل طبيعته الى سرعة التأثر والانفعال والحساسية .

وارجو ان تذكر اني لا احاول هنا ان اثبط همتك او اوهن من عزيمتك في محاولة البحث عن الجو الذي يلائمك وعن طبيعة العمل المناسب لك ، ذلك لاننا جميعا ليست لدينا نفس الميول ونفس المواهب ، فهي تختلف من شخص لاخر . . فالميكانيكي الذي يشتغل بالالات لا تطوع له نفسه الاشتغال بالفن او الادب ، كما ان الفنان ذا الذوق الفني لا يناسبه الاشتغال بالاعمال الميكانيكية . ولكنك حين تصفو سريرتك وتطيب نفسك وتسمو روحك ستغدو في مركز يتيح لك ان توجه حياتك كما تشاء .

والذين احرزوا نجاحا في حياتهم هم الذين استطاعوا **ان يتعاملوا مع ذلك «العملاق الذي يكمن في اطوائهم»** ـ عقولهم الباطنة . فعقلك الباطن اقدر من اي شيء اخر على توجيهك . واذا كان هناك من يستطيع ان يساعدك في التوصل الى العقل الباطن وان تكون على علم ودراية به ، **فستغدو خير حكم لما هو خير لك .**

وثمة لا يزال طراز اخر ـ هو الشخص الذي ينتابـه **الوهن والفتور والضعف بسرعة . وهناك ايضا الاف ممن** **يخفقون اخفاقا ذريعا في احدى الوظائف وينجحون نجاحا** **باهرا في وظيفة اخرى . وقد يضطرك الامر ان تحاول** عدة اشياء قبل ان تقتنع تماما بأن نوعا معينا من العمل هو الذي تحبه وترتاح اليه ، وانه هو العمل الوحيد الذي يحتمل ان تنجح فيه .

ولكن قد يقول قائل : « انني لم احب ابدا اي عمـل حاولت ان ازاوله ، ولقد جربت في ذلك كثيرا من الحرف والاعمال المختلفة » . والجواب على هذا هو انك لم تفهم بعد نفسك ، وانك لست علـى صلة بذلـك **« الشخص الداخلي »** ، ولذلك فقد اخفقت في ان تجعل العمل يتمشى مع الاتجاه العقلي السليم .

انني اعرف اناسا عديدين بعد ان وجدوا انفسهم احبوا العمل الذي كانوا من قبل يكرهونه ولا يميلون اليه . ومصدر القلق والاضطراب عند معظم الشباب ان ليس بوسعهم ان يتخيروا ما يشاءون ، ولكنهم مضطرون لقبول اول وظيفة تصادفهم فيشغلونها لقاء اجر بسيط يتقاضونه مقابل العمل الجاد الذي يقومون بادائه .

ان اول شيء يجب ان يضعه الفرد موضع الاعتبار هو اهتمامه بمواهبه الطبيعية التي يمتلكها والتي يدخل في نطاقها : التعليم ، والتمرين ، وحقوق الاختيار ، والقدرة . ومن المحقق ان الفرد يجيد العمل الذي يحبه . واذا كان العمل ثابتا ومدعما بما يشعر الفرد بانه هو التعليم الكافي او الوافي بالغرض ، والكفاية ، والصلاحية الطبيعية ، فعلى صاحبه ان يباشره بكل طاقته واهتماماته ورغبتـه الممكنة ، التي يستطيع التسلط عليها والتحكم في قيادتها وتوجيههـا .

واذا اراد الفرد ان يحقق نجاحا يتعين عليه الا يرضى بانصاف الحلول ، ولا ان يقبل الوقوف فـــي منتصف الطريق . فالاشخاص الذين ارتفعوا الى اعلا قمم النفوذ والشهرة وحسن الصيت هم في الغالب اولئك الذيـن **نجحوا في اي مهنة او حرفة مـن الحرف الكثيرة ، او الذين كانت توجههم الى مجريات معينة مـن النشاط : مصادفة صغيرة ، او مميزات خاصة ، او انطباعـات البيئة التي نشأوا فيها .**

لقد سمعنا ان هناك بحيرة يتفرع منها نهران يعرف كل منهما منبعه . احدهما يصب غربا ، وتصل مياهه في النهاية الى المحيط الهادي ، بينما يتدفق الاخر شرقـا وتأخذ مياهه طريقها في خليج المكسيك الى المحيط الاطلسي . وليس عند منبعهما الا نتوء في الارض صغير هو الذي قرر مصير كل منهما .

وهناك عند احد طرفي البركة التي تكونت في فوهة بركان اكوتان بجزر الافوشيان تطفو جبال الجليد ، وعند الطرف الاخر تصل حرارة الماء الى درجة الغليان ، وفيما بين الطرفين يسبح الطير رائحا غاديا وهو سعيد بدفء الماء .

فاذا ابحرت سفينة نحو الشرق ، واقلعت اخرى تجاه الغرب ، في نفس الوقت الذي تهب فيه عليها ريـــح واحدة . فان مجموعة القلاع وكيفية ترتيبها ونظامها وكيفية

اتجاه المسير – ليست الانواء او الريح الهوجاء – هي التي تقرر المصير في الطريق الذي يسيران فيه .

كذلك اذا لم يكن يعرف الانسان بمنتهى الدقة ماذا يلائمه ويصلح له او ما يكون هو مناسبا او صالحا له ، فلن تجديه محاولته تجربة الاشياء فتيلا . فالشخص الذي يتخذ الحرف او الصناعات تجارب تتلو الواحدة الاخرى فهو بكل تأكيد لا يحب شيئا . وهذا ناشىء ، كما اعتقد، عن الحقيقة التي تؤكد انه مجرد « مجرِّب » كالمريض الذي يجرب طبيبا بعد اخر فينتهي به الامر الى اليأس من الشفاء.

كوة لكل انسان

والانسان ، سواء اكان شابا أم فتاة ، حين يسعى في الحصول على ما يتخيره من العمل يتحتم عليه ان يصغي جيدا لصوت حوافز وجوده العميقة ومثيرات كيانه. ويعمل بالمثل الذي يقول : « عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة» فهو مثل صحيح، ولذلك فالعمل الحالي يجب ان يتم انجازه ليطابق غرضا عاما شاملا ويساعده . واذا تحمس شاب واهتم بالسعي الدائب ليعرف طريقه فانه حتما سيجده . وكم في العالم من اناس يفقدون وظائفهم لا لانهم لا يعرفونها ، ولكن لانهم لا يسعون لمعرفتها ، ولانهم لا يستمدون الى حوافز نفوسهم الهادئة ، ومثيرات ذواتهم اللا شعورية .

فهناك كوة لكل انسان يملؤها ، وعمل يمكن لكل فرد أن يؤديه على خير ما يكون الاداء . وليس يكفي ان يحتفظ كل واحد بعمله أو ان يكون لكل فرد عمل يشغله او وظيفة يقوم بادائها ، وانما يجب ان يقوم بالعمل الذي يتناسب مع مقدراته ، ويكون جديرا بكفاءته ، حتى لا يمكن ان يقوم بانجازه اي شخص اخر سواه على الوجه الاكمل .

لقد رأيت اناسا يشتغلون في تمهيد الطريق ورصفها ، كان يمكن أن يكونوا ممن يسنون القوانين . وصادفني في الحياة اخرون يشغلون مراكز عالية كان في تقديرهم ان يكونوا سائقي سيارات نقل فالاولون ادت بهم الحال الى هذا الوضع لافتقارهم الى الثقة والمبادأة . اما الاخرون فقد كانت لديهم حاسة الكرامة الحقيقية والشعور بعزة النفس والاستقامة في السلوك الانساني .

فلا تسبح مع التيار على غير هدى .. لا تجعله يجرفك حيث يشاء .. ولا تظل ساكنا ابدا .. فالحياة حركة ، ومن الافضل لك ان تتقدم الى الامام مرتكبا الاخطاء عن ان تظل ساكنا ، جامدا ، عديم الحركة . واعلم ان الذين يحسنون استغلال مميزاتهم ويسعون بكل نشاط وهمة الى تحويل كل قواهم الى تعبير أعظم وارحب ، هم الجديرون حقا بالمراكز العالية ، وهم الذين لهم الصفات التي تؤهلهم لبلوغ المنزلة الرفيعة والمكانة اللائقة بهم في الحياة .

وثمة اناس يحسبون ان ليس من الضروري ان يهتموا بالناحية التجارية او المالية في دنياهم ، فتراهم ينهمكون في امر انفسهم وفي شؤونهم الخاصة وينسون كل شيء ما عدا ذلك . وهذا عين الجهل والغباء .. فالطبقة او الهيئة الاجتماعية التي نعيش فيها ، انما يقوم نظامها على خطوط متباينة ، والذي يركن الى الحظ ويعول على سخاء الذين من حوله ممن تربطه بهم صلات شرعية لا يلبث ان يزول عنه بكل اسف الوهم الذي كان يتوهمه ، ويتبدد الامل الكاذب الذي كان يأمله .

طالب بما تعتقد اعتقادا راسخا انه من حقك . فالناس لا يقدّرون قيمة الاشياء الرخيصة مهما كان قدرها من الجودة او الندرة او الاتقان . انك اذا اديت عملا الى احد الناس وتقاضيت عنه نصف ما تستحقه من أجر متنازلا عن النصف الاخر فسيخامره الشك في انك بذلت مجهودا يذكر في هذا العمل ، وسيظن انك لم توفه حقه من العناية والاهتمام .

ولا تخش شيئا من المطالبة بكل ما ترى انك تستحقه لقاء عمل قمت بادائه . فاني اعرف طبيبي اسنان بدءا ممارسة عملهما في آن واحد بعد ان تخرجا معا . وكان كلاهما اهلا لهذه المهنة،وكانا ماهرين متمكنين من عملهما. احدهما بذل كل ما وسعه من جهد في ان يجعل الناس يدفعون له اجرا معينا فهو لا يملك الكثير ، في حين ان الاخر كان يأخذ في اكثر الاحيان اي اجر يقدم له ، ولذا فهو يعيش حتى الان حياة افضل .

ولقد مر عشرون عاما طوالا منذ بدأ الاثنان يمارسان المهنة ، ولا يزال احدهما يحصل على اتعاب بسيطة من عمله المتقن حتى انه اعترف لي ذات مرة بأن ليست عنده الجرأة لطلب اجر اكبر ، في حين ان الاخر قد وصل الى قمة الشهرة في مهنته ، وغدا محبوبا من مرضاه واصبح موسرا وافر الغنى .

والاختلاف او التفاوت هنا ليس في الصنعة او في المهارة الفنية او العملية ، وانما هو بكل بساطة في الفرق بين اسلوب عقليتهما . احدهما تنقصه الجراة والثقة بالنفس ، اما الاخر فأمكنه ان يحدد لنفسه اجرا عاليا بعض الشيء يتناسب مع الشهرة التي نالها طوال الاعوام السابقة .

وانت اذا تعهدت او تكفلت بشيء ، او اخذت على عاتقك عمل شيء ،يجب ان تقدر لهذا الشيء قيمته المالية. فلا ترخّص قدرك في عين نفسك او في أعين الاخرين بخوفك من طلب امور معينة تعتقد انك تستأهلها بحق . والدرجة او المنزلة التي تستحقها انما تتوقف الى حد كبير على مقدار الثقة التي تنالها ، والكيفية التي تنجز بها عملك. والناس الذين يفتقدون الثقة هم الذين ينتهزون الفرصة دائما .

فاذا افترضنا انك وفّقت في الالتحاق بعمل او وظيفة كوسيلة للعيش ومطلب من مطالب الحياة. فليس اقل من

نكهة النار

☆ ☆ ☆

أوغلت ، أوغلت . . . جدارا كسرت   **على مرايا الظلمات العبرت**
بوابة تهدمت . لم تزل   **من روح تدمر . . . فماذا جنيت ؟**
عرفت . . . يا جنيتي انقلي   **هذا الكسيح . . . أعيني قد غمضت**
ماذا ارى ؟ رسالة . الفسيل .   **الزجاج . الستار الضفرت**
صرخت : انسان أنا . لا تشوهني   **أنا يا ضوء . انت الفهمت**
هذي التي تضمني ما اسمها ؟   **عرفتها . . . وما اسمها ؟ قد نسيت**
بلورة ؟ . . لربما . الصفاء   **ما أحيلاه . . . به قد ولدت**
نافذة ؟ . . ضيقة . . . هاالتي   **في حجم غليومي . . . ومنها انطلقت**
الصمت يعوي . سرر كلها   **من غير نسوة ببيتي . . . افتقرت ؟**
ومن بعيد جاءني . . . جاءني . . .   **دنا . . ولا . . . ما جاءني . قد وهمت**
نظرت . أسبلت جفوني . مررت   **بذكرياتي . ثم اني بكيت**
عادت . ندمت . أثمرت دمعتي .   **لا ما ندمت . عللي يا ندمت**

يا ارض ، ما أصفرك الان ! نقطة   **من الحبر الذي قد وضعت**

حلب   **علي الزبق**

ان تعتبر هذا العمل هو الشيء الوحيد الذي يتعين عليك ان تنتظم فيه مؤقتا . . فتدرس جيدا تفصيلات هذا العمل المعروض عليك ، وتغوص في اعماقه ، وتسبر غوره ، وتبحث فيه عن « ذاتك الباطنة » لان خير المعلومات وافضلها هي التي يمكن ان تمدك بها ذاتك اللا شعورية . وعندما تقتنع تماما من كفاءتك وصلاحيتك ضع نفسك في العمل بكليتك ، وتفرغ له تماما ، وصمم على انك حتما ستنجح .

سبب الاخفاق

ان التردد والتذبذب وتقلب الراي ، وعدم الثبات على امر من الامور ، والطيش وعدم الاستقرار ، من العوامل التي تؤدي حتما الى الاخفاق والخيبة والخسران . فاذا انت اعترفت مرة واحدة — حتى ولو بينك وبين نفسك — بانك ارتكبت خطأ او وقعت في زلل ، فانك بذلك تكون قد بذرت في نفسك جرثومة الشك والخوف وتثبيط الهمة . فبدلا من ان تنظر الى بعض الهفوات الصغيرة او بعض الهنات الهينات على انها مجموعة اخطاء فادحة ، اشعر نفسك بانها واحدة من اقل الاخطاء التي يرتكبها الناس ، وليس في الناس من هو معصوم من الخطأ .

والهزيمة انما تأتي في الغالب من الاغراق في تصور الاشياء بأكثر مما تستحق ، والتهويل في الامر بكثير من المبالغة . ومع ذلك فالكفاح العنيد ، والنضال المكافح ، مع الايمان العميق ، سيسمح لك بأن تنمو قويا متينا خلال هذه التجارب . وسيتيح لك بناء اعمال عظيمة واقامة مشروعات عجيبة على انقاض هذه الهزيمة المؤقتة .

ان المئات من الناس — رجالا ونساء — ممن قاموا بأعمال مجيدة قد اخفقوا عشرات المرات قبل ان ينجزوا ذلك العمل الفذ الذي جنوا ثماره وذاقوا قطافه . وليس منا من لم ير مثل هذه الحالات بنفسه .

واني اذا سئلت عن الصفة الوحيدة التي اعيرها اكثر الاهمية في اختيار عمل العمر ، وفي سلوك عمل الخير في الحياة ، فاني أجيب بأنها « الثقة » لا شيء سواها .

فعلينا اذن ان نثق بأنفسنا كل الثقة ، والا ندع اية عقبة مهما بدت امام ناظرينا كبيرة ، ان تقف في سبيلنا ، فتبعدنا عن القصد وتنأى بنا عن الهدف .

الاسكندرية   **عبدالعزيز جادو**

رائحـة السنديان

•

يمر الزمن فلا نحس زمنا
والساعة مثل أخرى تؤز عفنا
قدماي سحلتهما اشباح السنين
وحروف تكفر بالسنين
وأخرى تصرخ ، تفلت علينا مثل تنين
وموج الهواء يطوي لسان الثور
نتن لسانه ، عينه كهف خنزير
وقع القدم
أو صوته
حوّل القلب الى اصطدامات القدر
والمد فيه والجزر يتبعه برق ورعد
نبحث عن حروف
لكي نصنع منها الكلام
فنعيى وتعيى الحروف ويعيى الكلام
وتصرخ في الزاوية
مرآة عتيقة كانت لجدتي
وجدتي ما رأتها أمي
وغابت أمي معها
فصارت المرآة مثل صوّان «حوران»
وابيضّت العين مثل ثلج « صنين »
وعدتُ الى عصا أمي
صامتة عصا أمي فقيرة مثلها
شحلتها بيدها العليلة
قصّتهـــا من شجر السنديان
في حديقة بيتنا شجر من السنديان
رائحة السنديان في عصا امي

هنا كانت يدها
تلتف على رأس العصا
ما اطمانّت الا لها
حمّلتها بعض الهموم
والعصا تنشد في الزاوية :
« كم اود لو أثور
أجلد كل من أثقلها
بسمتها ازالت عني الشقا
وردّت ثقل الهموم الى قلبها
فصمت الى الابد
كم اود ان اجلد من أثقلها » !
« وتوكّل » يا جني يا روح الدنى
بالخنّاس والوسواس
غريب قلب كل انسان
موطن الرطب واليباس
ما الذي يوسوس في الصدور ؟
وما الذي يخور في البحور ؟
يا ليت لي خاتم لبّيك !
مدينتي خراب في خراب
ينعق فيها البوم والتراب
وأهلي خيوط مفتولة
وتدّتها الصخور الى صخور
ويدي صفر على صفر
وعصا أمي صفراء من الهموم

ثريّا ملحس



محمد رجب البيومي

فجر النهضة الادبية بمصر

بقلم محمد رجب البيومي

* * *

اذا نظرنا الى نهضات الشعوب الاوروبية نجدها كانت ثمرة تجارب متنوعة في أساليب الحكم وتقاليد الحياة اخذت تتطور منذ شروق عصر النهضة حتى قامت الثورة الفرنسية فكانت مفتتح ما تلاها من النهضات في ايطاليا وبلجيكا والمانيا وامريكا وسواها من شعوب العالم المتحضر! وكل نهضة رائعة من هذه النهضات قد بشَّر بها الادب والفن قبل ان تولد ، فهتفت بها احلام الشعراء ، ورسمتها الواح المصورين ، واخذ جيل ما قبل النهضة يشرئب لها في غدواته وروحاته ويسرح بذهنه ذاهلا عن واقعه الممض الى حياة اخرى تعبق بالحرية والعزة والاستقلال وتتألق بمصابيح الحضارة وفتوحات العلم والتقدم والازدهار ، حتى اذا وقعت الواقعة وانبثق فجر النهضة في ثورة تكتسح اطلال القديم المتعفن لتبنى فوقها قصورا ذات حدائق وجداول وجدت هذه الثورة ملايين الافراد يرحبون بها وينضمون اليها في شوق وانجذاب ، اذ صادفوا فيها تعبيرا عن خوالجهم ، وتحقيقا لآمالهم ، واذ ذاك تسير النهضة قدما الى النجاح وقد وجدت الشعب المؤازر والساعد المتين !

ولكن نهضة مصر في عهد محمد علي لم تكن تلبية حارة لآمال تجيش بها صدور الافراد ، ولم تسبق بأعلام كثيرين يمهدون لها طريق الفلاح بل فوجيء الشعب المصري بحاكم طموح يريد ان يكون ذا هيبة واستقلال ، وقد دار بعينيه فيما حوله فوجد مظاهر الجمود والخمول لا تسعفه بما يريد من تطور وانطلاق ، فصمم على ان يقيم نهضة عسكرية علمية ، يستطيع بها ان يجد الجيش الناصر ، والجند المتأهب، لذلك اعد البعثات وانشأ مدارس الطب والصيدلة والهندسة والادارة والالسن ! واخذ يستعجل الايام ليرى آماله تتحقق على يد هؤلاء المبعوثين الى الخارج والمتعلمين في الداخل ، وقد تكون هذه البعثات الحربية العلمية ذات فائدة كبيرة دون شك ، ولكن الاهتمام بالدراسة العلمية وحدها ، واغفال الدراسات الادبية والانسانية قد ابطأ في تكوين راي عام مستنير ! فلو ساندت هذه النهضة العلمية نهضة ادبية ترمي الى محو الامية بدءا ثم انارة الاذهان بما يجب ان تكون عليه الشعوب الناهضة من تقدم وانتعاش لوثب الشعب وثبة ظافرة ، ولما استطاع امثال عباس الاول وسعيد ان يغلقا المدارس بجرة قلم دون اعتراض ! ولكن جنديا كمحمد علي لا يطرأ على باله جدوى الاداب والفنون في ايقاظ الشعوب ، واثارة المشاعر والاحاسيس ! وانما همه الاول ان يجد جيشا يحفظ به ملكه ، ولن يتحقق ذلك دون البعثات العسكرية والعلمية ! اما اليقظة الادبية فما اقل جدواها في منطق رجل حربي هيأت له المقادير ان يسود ، ولعله لو فطن الى جدوى النهضة الادبية واثرها النفاذ ؟ لتعمد كبتها واغفالها ، ليظل الشعب غافلا عن حقوقه ومطالبه ! ذلك الشعب الذي صرخت فيه دماء الحرية فأقدم على مبايعته مختارا ، ووقف في وجه الخليفة العثماني ليملي عليه ولاية محمد علي على مصر ! وان شعبا يلهم هذا الاحساس الحر رغم ما اعترضه من مصاعب واهوال لجدير ان يسبق الى العزة والاستقلال لو وجد من يفون بالعهد ويحفظون الوعود !

على ان الحملة الفرنسية على مصر قد كانت صيحة عالية دوت في آذان الشعب النائم فهب مذعورا يفتح عينيه على ما لم يكن يتوقع ! لقد كان يظن ان الحياة لا يمكن ان تسير على وجه غير الوجه الذي يعتاده ، فليس هناك احسن مما كان ، فالمماليك ذوو القوة الغالبة والباس المتجبر ، سادته والو الراي في امره يتنازعون ما يتنازعون فيما بينهم دون ان يرى له الحق في التدخل لاغاثة المظلوم وقمع الظالم ، والوالي التركي يجلس بغطرسته وكبريائه في القلعة عاما او عامين ليسلب ما يقدر عليه فوق الضريبة المفروضة على المسلمين لامير المؤمنين ثم يرحل ليخلفه سواه ! وكل ذلك شيء طبيعي في نظر الشعب كما تشرق الشمس في الصباح وتغرب لدى المساء ! حتى اذا قدمت الحملة بمدافعها واسلحتها وجنودها وابطالها ، هوت اسطورة المماليك حين قتل منهم من قتل ، وهرب من هرب ، فتفرقوا ابادید بمرأى ومسمع من الشعب الذي اعتقد فيهم السطوة والجبروت ، كما فر الوالي التركي بالقاهرة وساعد زميله بالاسكندرية على الخيانة والهزيمة

والعار ، فتبدد السراب الخادع للعيون ، واذا الاتراك والمماليك لا شيء !

ومع ما قوبلت به الحملة من المقاومة العنيفة المضطرمة في القاهرة وشتى انحاء القطر المصري حتى ارغمت الفرنسيين على الارتحال ، فقد فتحت عيون العقلاء على الباهر الرائع حقا ، فالمكاتب التي تجمع نفائس المجلدات، والمطابع التي تخرج المنشورات والمسارح التي تبدع التمثيليات ! والمدارس التي تعلم اولاد الفرنسيين على نظام شائق دقيق والمراصد التي تتنبأ عن الحرارة والبرودة وتكشف الافلاك والكواكب ، والنقوش البديعة في صالات الاجتماعات ، ومجامع البحوث في الكيمياء والرياضة كل اولئك كان طريفا نادرا امام من شاهدوه وتأملوه من اعيان البلاد وعلمائها ، بل كان فطنة السحر والشعوذة وعلامة اقتراب الساعة لدى قوم ، وموضع الاسى والالتياع لدى مفكر متأمل كحسن العطار ! وانت تطالع وصف الجبرتي لبعض العمليات الكيميائية التي وقعت امامه في حجرات المعامل .فلا تدري اتصفه بالسذاجة ام تعذره عذر المشفق الرحيم! مهما يكن من شيء فقد كانت هذه الصيحة المدوية باعثا قويا على التفكير في شؤون التعليم والتربية لدى العقلاء من المصريين ، وانت تطالع ما كتبه حسن العطار في انهاض التعليم لعهده فتجد اثر الحملة الفرنسية قويا مضطرما في نفسه ، وكأني به وقد عز عليه ان يتقدم الفرنجة هذا التقدم المذهل ، على حين يتوارث الازهريون حواشي المتاخرين ومتون المتخلفين فيدور نقاشهم حول اخراج محترز او الاعتراض على لفظ ، او تأويل جملة ، او تكلف وجوه الاعراب لبيت شاذ ، وقد تعود فريق من مؤرخي النهضة الادبية الحديثة ان يجعلوا جمال الدين الافغاني من الرجال غارسي بذرتها وباعث حياتها فوق عواملها الاخرى من صحافة وكتب ومدارس وبعثات ! وفي رايي ان جذور النهضة الحديثة تضرب في الارض الى مدى بعيد يرجع الى حسن العطار ، ولئن كان جمال الدين صاحب فضل لامع لا يجحد فقد تقدمه فضلاء ماجدون لا نرى من خير التاريخ الادبي ان نسكت عن كفاحهم الرائد الواعد ، فالعطار وحده هو اول من ثار على الطريقة التعليمية في عصره ، واول من دعا الى دراسة الفلسفة وآراء الخصوم ، واول من الح في اعادة تدريس هذه العلوم لانها كانت من قبل موضع اهتمام كثير من العلماء ، فقد وجد في اجازات بعض الازهريين ما يشير الى ذلك اشارة واضحة ، فانت ترى في اجازة العالم الكبير الشيخ احمد عبدالمنعم الدمنهوري (١١٩٢ هـ) بيانا للدروس الذي حضرها والف فيها ومن بينها « دروس الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات واسباب الامراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الارثماطيقي وعلم المزاول وعلم الاعمال الرصدية ، وعلم المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم » وقد يستغرب القاريء المعاصر هذا الحشد من العلوم ويزعم انه شذوذ على المألوف المشاهد ، اذ لو درست هذه العلوم حقا في ذلك الزمن المظلم ، ما تقهقرت البلاد هذا التقهقر المشين ، ولكن الواقع ان هذه العلوم كانت من جهة اولى تخص القلة القليلة من المميزين الطلاب فليست مما يتداوله عامة الازهريين حتى يعم بها النفع والاصلاح. ومن ناحية ثانية نجد هذه العلوم تدرس في كتبها العربية القديمة فهي تصور علوم العصور السالفة . وقد جد من الازدهار في الغرب ما جعل حقائقها العلمية في حاجة الى تطوير سريع وتعديل دائم ، اما انها كانت تدرس حقا فمما لا شك فيه لاننا نجد بعد الدمنهوري من عكف عليها مثل الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ الكبير ، ووجود امثال الدمنهوري والجبرتي وغيرهما يدل على وجود اساتذة يشرحون ويفسرون ! غير ان ذلك في نطاق محدود أشبه ما يكون بالدراسات العالية المتخصصة في هذه الايام ! والدليل لا يقبل الشك على وجود هذه العلوم وانتشار مؤلفاتها القديمة – ولو في اضيق نطاق – ان اعضاء البعثات الطبية والعلمية في عصر محمد علي ، قد وجدوا كفايتهم منها عند التعريب العلمي فعكفوا على امثال مفردات ابن البيطار وقانون ابن سينا وكليات ابن رشد ! وقرءوها في سهولة ويسر ! فمصر اذن لم تقفر اقفارا تاما من هذه الدراسات ، ولكن ظلام العصر ، وجهل الاتراك وفرا المماليك قد جعل هذه الجهود المباركة فردية خاصة يقوم بها الطالب والمدرس دون تشجيع ! وهي بذلك اخرى ان تنقطع بين الفينة والفينة حتى تبعث حسرات مصلح كبير كحسن العطار ، فينعي على زملائه هذا التقهقر الشائن ، ويرسل صيحاته المدوية في كل مناسبة ! حتى في مجال التعليق على كتب الفقه والاصول فهو يقول في حاشيته على شرح الجلال الحلي على جمع الجوامع بالجزء الثاني عند الحديث عن القياس الاصولي « ومن تأمل ما سطرناه وما ذكر من التصدي لتراجم الائمة الاعلام ، علم انهم كانوا – مع رسوخ قدمهم في العلوم الشرعية والاحكام الدينية – لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم ، واحاطة تامة بكلياتها وجزئياتها حتى في كتب المخالفين في العقائد والفروع ، يدل على ذلك النقل عنهم في كتبهم ، والتصدي لدفع شبههم ، واعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر في كتب غير اهل الاسلام ، فاني وقفت على مؤلف للقرافي رد فيه على اليهود شبها اوردوها على الملة الاسلامية لم يأت الرد عليهم الا بنصوص من التوراة ، وبقية الكتب السماوية حتى يظن الناظر في كتابه انه كان يحفظها عن ظهر قلب ، ثم هم مع ذلك ما اخلوا في تثقيف السنتهم وترقيق طباعهم من رقائق الاشعار ، ولطائف المحاضرات ، ومن نظر ما دار بين المصنف رحمه الله وبين الاديب الصلاح الصفدي من المراسلات البليغة والاشعار الرقيقة علم انه

رحمه الله ممن تخضع له رقاب البلغاء وتجري في مضماره سوابق الادباء ، وكذا ما دار بين سلطان المحدثين الحافظ ابن حجر العسقلاني ومن عاصره من فحول الادباء ، من لطائف الاشعار والنكات الادبية ، وكذا العلامة الدماميني بل وبين الحافظ السيوطي والسخاوي من المناقضات وما الفه من المقامات ، وفيما انتهى اليه الحال في زمن وقعنا فيه ، علم ان نسبتنا اليهم كنسبة عامة زمانهم فان قصارى امرنا النقل عنهم بدون ان نخترع شيئا من عند انفسنا ، وليتنا وصلنا الى هذه الرتبة بل اقتصرنا على النظر في كتب محصورة الفها المتاخرون المستمدون من كلامهم نكررها طول العمر ولا تطمح نفوسنا الى النظر في غيرها ، حتى كان العلم انحصر في هذه الكتب ، فلزم من ذلك انه اذا ورد علينا سؤال من غوامض علم الكلام ، تخلصنا منه بأن هذا الكلام من كلام الفلاسفة ولا ننظر فيه ، او مسالة اصولية قلنا : هذا من علوم اهل البطالة ، وهكذا ، فصار العذر اقبح من الذنب ، واذا اجتمع جماعة منا في مجلس، فالمخاطبات مخاطبات العامة ، والحديث حديثهم ، فاذا جرى في المجلس نكتة ادبية ربما لا نتفطن لها ، وان تفطنا لها بالغنا في انكارها ، والاغماض عن قائلها ان كان مساويا ، وايذائه بشناعة القول ان كان ادنى ونسبناه الى عدم الحشمة وقلة الادب ، واما اذا وقعت مسألة غامضة من اي علم كان ، عند ذلك تقوم القيامة ، وتكثر القالة ، ويتكدر المجلس ، وتمتلىء القلوب بالشحناء ، وتغمض العيون على القذى ، فالمرموق بنظر العامة الموسوم بما يسمى بالعلم اما يتستر بالسكوت حتى يقال ان الشيخ مستغرق ، او يهذر بما تمجه الاسماع ، وتنفر منه الطباع فحالنا الان كما قال ابن الجوزي في مجلس الوعظ ببغداد:

ما بالديار اخو وجد تطارحه حديث نجد ولا خل تجاريه

وهذه نفثة مصدور فنسأل الله السلامة واللطف »

ارايت اي شعور حاد يختلج في نفس هذا المصلح !واي نقمة غاضبة كانت تملأ جوانحه اسفا على ما يلحظه لدى علماء جيله !.. واي دعوة قوية الى الادب والشعر والنظر في كتب الديانات والمنطق .. ان مصلحا كذلك المصلح لا بد ان ينشىء تلاميذ يؤمنون برايه ، وينسجون على منواله ، وقد اتيحت له الفرصة فتولى اكبر منصب علمي في البلاد اذ صار شيخ الازهر الشريف اربع سنوات وكان لديه ميل اي ميل لدراسة العلوم الطبيعية والرياضية حيث اتصل بمعامل الفرنسيين واطلع - كما تحدث عن نفسه - على الالات الفلكية والهندسية ، وتجول في البلاد شرقا وغربا من القاهرة الى البانيا ، وقد عاد ذلك بالنفع على روحه المتوثب وعقله المتفتح ! ولكن النفع الاكبر قد عاد على تلاميذه حين وجه نابهيهم الى الادب واللغة فكان منهم محمد عياد الطنطاوي ومحمد قطة العدوي وابراهيم الدسوقي ، ورفاعه الطهطاوي ، ولئن كان للرجل تلاميذ اخرون نبغوا في العلوم المختلفة فان حديثنا الان يتجه الى الناحية الادبية اللغوية ! واثر مدرسة العطاء في هذه الناحية لا يزال خفي الملامح ضائع السمات ! مما يسمح لنا ان نتحدث بعض الشيء عن تلاميذها الرواد .

اما الشيخ الطنطاوي فاول من درس المعلقات والمقامات بالازهر قبل رحلته الى روسيا ، وتلك خطوة هامة في الالتفات الى الادب بنثره وشعره اذ ان جمهرة العلماء لعهده كانت ترى التدريس منحصرا فيما يسمى علوم الوسائل والمقاصد ، وليس من بينها الادب كما يجزمون ! فكان حدثا رائعا ان يجمع الشاب تلاميذه في صحن الازهر ثم يظل عشر سنوات يشرح لهم المعلقات ويهتف باشعار امرىء القيس وزهير وعنترة وطرفة ، ويملي تعليقات بديعة على شرح العلامة الزوزني لها ،في وقت كان شعراء العصر وادباؤه لا يلتفتون لغير اشعار المتخلفين من ابناء المدرسة البديعية ، وفي وصفهم بالشعراء تجاوز متسامح لانهم لا يخرجون عن النظم العروضي الى روح الشعر وجوه ، اما تدريس المقامات فمهما قيل في الاعتراض عليه ، فهو خطوة اولى لدراسة النثر ، ومحاولة لعرض نمط من الاسجاع والمحسنات يرتفع عما تعورف لدى ادباء العصر العثماني ومن وليهم الى عهد الاستاذ ! ولا شك انه انشأ من التلاميذ من فهموا مذهبا جديدا في الشعر ، وانبه طالب تخرج على يده هو الاستاذ حسين المرصفي صاحب الوسيلة الادبية وسنلم به بعد حين ! هذا تلميذ فذ من مدرسة العطار ، اما زميلاه الشيخان محمد قطة العدوي (١٨٦٤ م) وابراهيم الدسوقي (١٨٩٣) فلا ادري لماذا غفل مؤرخو الادب عن تعداد مآثرهما النافعة ، وهي مما لا يجوز انكاره ، حيث ترهب كلاهما رهبانية جادة في تصحيح الكتب الادبية ، وتقديمها الى المطبعة العربية لاول مرة نقلا عن الاوراق المتاكلة والصحف المطمورة ، والسطور الباهتة المضطربة ، دون كلل او فتور ، لقد تعودنا ان ننظر الى الطبعات الاولى لامهات الكتب التي صدرت في النصف الاول من القرن التاسع عشر نظرتنا الى عمل تجاري يقوم به وراق محترف دون ان يتسلح بعلم او مران ، مع ان الانصاف الدقيق يفرض علينا ان نتذكر ما كانت عليه اصول هذه الكتب من تحريف وتشويه واهمال ، فنقدر كم بذل مصحح الكتاب من عقله ووقته حتى استقام له النص على وجه من الوجوه ، ثم هو بعد لا يملك من ادوات المراجعة والتدقيق ما نملك الان بعد ان ازدهرت حركة النشر في جميع اقطار الامة العربية ، حتى يقابل بين نص ونص ، ويوازن بين عبارة وعبارة ، وفوق ذلك فانه لا يقتصر على اخراج كتاب او كتابين او ثلاثة وانما وظف مصححا بالمطبعة لتتراكم حوله الاصول المختلفة عن يمين وشمال ، وهو بعد مطالب في الحاح سريع ان يقوّم العبارة في اقرب مدى يتاح !

اقول لو تاملت فيما نشره العدوي والدسوقي

وتلاميذهما من المصححين لوجدت ان المصحح الواحد قد نشر من المؤلفات في عمره المديد اكثر من اربعين كتابا وقف منها امام كل لفظ ، وناقش كل عبارة ، وفكر في كل معنى ، ثم قدم جهده الى المطبعة دون ان يجد له حقا في ذكر اسمه ، اذ انه ـ كما يعتقد ـ موظف يقبض اجرا على التصحيح والتحرير فلا مجال اذن لتسجيل ما يشير اليه من قريب او بعيد ! ثم تقدم الزمن قليلا فراينا من تلاميذ هؤلاء الرواد من يذكر في اخر الكتاب نبذة موجزة تعرف بكلمة المصحح يبتدئها غالبا باسمه ، ولكن من عرف من هؤلاء اقل ممن جهل ، اما يجب ان ندخل في حسابنا اثر هؤلاء المكافحين الكماة ! مبتدئين برائدي التصحيح المطبعي بعد ان عرفنا اندفاعهما المخلص في نشر الكتب الادبية ، ومقدرين ما غرسه العطار في نفسيهما من حب للادب والشعر اذ لولاه لاقتصرا على الكتب العلمية دون اتجاه الى مؤلفات النثر والشعر والتاريخ !

ونعرج على الطهطاوي ، وهو انبه تلاميذ العطار قدرا ، وابعدهم صيتا ، واعلاهم همة وقد اتيح له ان يسافر في بعثة علمية الى باريس باشارة العطار وتوصيته بعد ان لمس دلائل نبوغه بالازهر وعرف من امارات جده واجتهاده ما جعله موضع الاستفادة والافادة في تقديره ، ولك ان تعجب حين تعلم ان رفاعة قد اختير ليكون اماما للبعثة فقط ، ولم يكن من المقرر عليه ان ينهل من حياض المعرفة الحديثة مع مرافقيه في راي صاحب الامر ، ولكن العطار يدرك الظمأ المتسعر في نفس تلميذه الى المعرفة والثقافة، فيشير عليه ان يقبس من العلوم والمعارف قدر ما يستطيع وان يدون خلاصة وافية لما يرى ويسمع في بلاد الحضارة والمدنية ليقف المصريون على بعض ما هناك من مظاهر الرقي والازدهار ، وقد رحل الطهطاوي عاقدا العزم على الكفاح والنضال ، وبادر باتقان الفرنسية في زمن لم يمتد الى اكثر من ثلاث سنوات ، وكان كالجائع الذي عضه الطوى شهورا طوالا ثم نظر فجأة الى خوان دسم يمتلىء بمئات الاطعمة وشتى الوان المرغبات ، فبهر عينه ما راى، وتحيَّر فيما يأكل وما يدع ، ولكنه اندفع الى تذوق الكثير من الاطباق المتراصة دون تحديد هادف لنوع هام من المآكل! هكذا كان رفاعة ! يسمع عن علم من العلوم فيسرع الى دراسته ، ويرى كتابا من الكتب فيبادر بقراءته ، حتى ذكر مترجموه انه عرب نحو اثنتي عشرة رسالة في مختلف الفنون والعلوم من هندسة معادن وطبيعة وتاريخ وتقويم ومثولوجيا وعلم الصحة والاخلاق ، وحتى شهد له استاذه شواليه بالاكثار من الدرس والتحصيل حتى اوشكت عينه اليسرى ان تكل ، كما ذكر انه كان يشتري اكثر الكتب من مرتبه الخاص ، ويدفع كذلك اجر معلم اضافي يقتصده من نفقته ليوقفه على ما لا يستطيع ان يدركه بمفرده ! وقد امتد نهمه الى كتب الاداب الفرنسية من سياسة وادب وتاريخ واجتماع فقرا مؤلفات روسو وراسين ومونتسكيو وفولتير . واجهد نفسه في دراسة معجم الفلسفة !ودرس القانون الفرنسي وعرب اكثر مواده ! كما وصف نظام الحكم الفرنسي وارخ للثورة التي شبت سنة ١٨٣٠ وكان قد شهد حوادثها وما تلاها من سقوط ملك وقيام اخر . وانتقد موقف شارل العاشر انتقادا صائبا حين اختار قائد عسكره من اعداء الشعب ومناهضي الحرية ، وحين لجأ الى الاضطهاد والعسف دون ان يجعل من العفو بلسما لجراح شعبه!! ونقول عن يقين ان هذه الدراسات السياسية القانونية هي التي جعلت رفاعة وطنيا غيورا ، فقد ادرك الهوة السحيقة التي تنحدر اليها الشعوب الشرقية وفي مقدمتها مصر اذ قورنت بباريس ، واخذ على عاتقه ان يقوم بدور المصلح الموجه وعاد الى وطنه ، وكانت ميادين الاصلاح امامه تتسع وتمتد حتى لتحتاج الى العصبة اولي القوة من المناضلين فماذا عسى ان يقوم به فرد واحد ، والحاكم باطش حذر ، والامة غافلة راقدة ، والحاسدون كثير.. لقد بادر بالثورة على طريقة التعليم في مصر ، ودعا الى منهج يسير خفيف المؤونة موازنا بين كتب الدراسة الفرنسية وكتب الدراسة الازهرية قائلا في رحلته الشهيرة :

« ومن جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم في العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها . فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة في تعلمها فان اي انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها ان يطالع اي كتاب كان ، واذا اراد المعلم ان يدرس كتابا لايجب عليه ان يحل الفاظه ابدا فان الالفاظ مبينة بنفسها، وبالجملة فلا يحتاج قارىء الكتاب ان يطبقه على قواعد اخرى برانية من علم اخر بخلاف اللغة العربية مثلا فان الانسان الذي يطالع كتابا من كتبها في سائر العلوم يحتاج ان يطبقه على سائر الات اللغة ويدقق في الالفاظ ما امكن ، ويحمل العبارة معاني بعيدة عن ظاهرها واما كتب الفرنسيين فلا شيء من ذلك فيها فليس لكتبها شراح ولا حواش الا نادرا ، فالمتون وحدها كافية في افهام مدلولها ، فاذا شرع الانسان في مطالعة كتاب في اي علم كان تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكاة الالفاظ فيصرف سائر همته في البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم وعن سائر ما يمكن انتاجه منها واما غير ذلك فهو ضياع ، مثلا اذا اراد الانسان ان يطالع علم الحساب فانه يفهم منه ما يخص الاعداد من غير ان ينظر الى اعراب العبارات واجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة التحنيس وقد خلت عنه وان المصنف قدم كذا ولو اخره كان اولى وانه عبر بالفاء محل الواو والعكس احسن ونحو ذلك ! » (للبحث صلة في العدد المقبل) .

الفيوم ــ دار المعلمات **محمد رجب البيومي**

آمال

•

ماذا ارد على اكتئابك ... ان كان ما بي فوق ما بك
الله يشهد ما جزعت ... لغربة مثل اغترابك
حسبي من العبرات ما ... اهرقتها لك في غيابك
يا ساعة امضيتها ... بين اليتاعي واضطرابك
لم أدر ما ابكي بها ... أعلى مصابي ام مصابك
آتراك هالتك النوى ... فكشفت عن هول ارتعابك
عبثا أحاول ان اعيد ... اليك شيئا من صوابك
كيف التفت بسمت لي ... عن هش وخز من عتابك
حتى لخلت الدمع في ... عينيك لونا من عقابك
(آمال) هل انا لو علمت ... سوى المتيم من صحابك
وأعيذ قلبي ان يكابر ... في النزول على طلابك
اذا بكيت بغير دمع ... كنت مدعاة ارتيابك
ولم الدموع ولوعتي ... اضعاف دمعك وانتحابك
يا ما وقفت مولها ... طول النهار امام بابك
علي اغازل ان خطرت ... رفيف شعرك او ثيابك
أعيا فاترع بالهوى ... كأسي واشرب من حبابك
ولكم اخذت عليك بخلك ... حين أطمع في رضابك
وانا الذي لو شئت عاقرت ... المنون على حسابك
وجعلت من عيني طعامك ... والمفضل من شرابك
ولطالما عريت نافذتي ... لتنشق من ملابك
ولمحت مقدمك الاغر ... وكنت في جحر ارتقابك
ارنو اليك وانت في ... طول انشغالك وانكبابك
(آمال) لاجاد الزمان ... بصحبة بعد اصطحابك
مثلت لي طهر العذارى ... في شذاك وفي اهابك
ما كان اسعدني بقربك ... اجتدي عطف اقترابك
كم مجلس عطرت روءعه ... المفاجيء من ذهابك
ان كان من امل يرد ... له السرور ففي ايابك
(آمال) يا حلمي ولم ... اكذب عليك ولم احابك
ما كان غير دعاك لي ... بالصبر خفف من عذابك
قبلت صوتك في دعاك ... وحلو ثغرك في خطابك
وشممت مسكي الهوى ... في كل حرف من كتابك
ما همني عمري اذا ... ولى وكان فدى شبابك
فضي دموع رسالتي ... وتبسمي لي في جوابك

بغداد

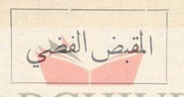
حافظ جميل

اخذ شريط ضيق من الدخان يشق طريقه خفيفا من واحدة من المداخن العديدة في القصر الاقطاعي القديم. لقد برز في وسط الفجر الخريفي القائم والشمس ما تزال في بدء شروقها. وان اي قين عارف بالامور، حين يرى الدخان من الوادي تحت ، ليعرف جيدا ان هذا الدخان لا يعني ان الطهاة قد شرعوا يعدون الفطور للكونت سكارليت ، او كما يدعونه في الوادي ، الوغد الاحمر . لقد كان الطهاة في قصر الكونت مهذبين ولم يستيقظوا قط قبل السابعة صباحا . وكل قين عارف بالامور كان جديرا بان يعرف ما يعنيه ذلك الشريط الصغير من الدخان . لقد كان المعلم كونراد سوبربوللنجيريانوس هو الذي استيقظ مبكرا هكذا . فلقد كان الكيميائي الفني لدى الكونت، وقد جاء من ويرزبورغ قبل سنة ونصف ، ومذ ذاك وهو يعمل في مختبره الكيميائي دون ادنى تقدم .

الواقع ان المعلم كونراد كان قد نهض اذ ذاك الى عمله . كان واقفا امام ناره مرتديا معطفا طويلا اسود ، وفوق النار كان يغلي مزيج عجيب من مواد ملفقة ذات روائح غريبة . كانت لحية الرجل الطويلة البيضاء تتدلى الى ركبتيه ، وحين كان يريد تمسيد لحيته (وكثيرا ما يفعل هذا) كان ينحني حتى يكاد يلامس الارض ، وحتى بهذه الانحناءة لم يكن يصل الى طرف لحيته الا نادرا .

لقد كان محاطا بكل انواع الادوات العجيبة، وعلى الجدران كانت خرائط عجيبة معلقة تشير الى حركة النجوم، وكل السموات مجزاة الى تلك الدوائر الكروية التي يستطيع المرء ان يقرأ فيها تقلبات الاقدار . وفي كل مكان تنتشر افران قوية الرائحة مبنية من الطوب ، وقوارير قوية لا تؤثر فيها حتى نيران الجحيم ، وقطع من الرصاص ، ومكاييل براقة ، وكور هائل كان يلهث كرئتي تنين مقتول حديثا ، وفي احدى الزوايا على قاعدة كثيرة النقوش ، تحت غطاء زجاجي على مخدة مخملية صغيرة ، كانت قطعة ذهب صغيرة اصغر حجما من نصف حبة الارز .

كان المعلم ينظر الى قطعة الذهب هذه ويهرش راسه . لقد استولت على الكونت سكارليت في الليلة الماضية نوبة غضب عنيفة ، فلقد تعب من حمل هذا المعلم على ظهره مدة عام ونصف العام ، فكان المعلم يأكل ويشرب ويحيا حياة حسنة الى جانب المبالغ الهائلة التي كان ينفقها على تجاربه ، ولم يستطع ان يصنع اكثر من هذه القطعة التافهة من الذهب . في احدى المرات في العام المنصرم كان الكونت قد صمم على



المقبض الفضي

للكاتب المجري فيرينس مولنار

مهداة الى الصديق الكبير عبدالكريم جرمانوس

ترجمها عن الانجليزية عيسى الناعوري

ان يقذف بالمعلم خارجا ، وعند ذاك نجح المعلم ، لحسن الحظ ، في خلق الذهب . والصحيح انه لم يستطع ان يتوصل الى ذلك الا بان يدخل الذهب – وكان قد اشتراه بنفسه – في داخل الرصاص الذي كان مفروضا ان يحيله الى ذهب . غير ان الكونت سكارليت ، على الرغم من انه كان وغدا داهية ، لم يستطع ان يكتشف ذلك ، ففي ادهى نوع من الطقوس السحرية المؤثرة وفي منتصف الليل



تماما ، قام المعلم بوضع قضيب الرصاص داخل النار على مشهد من الكونت ، وحينما رفعت القارورة من تحت الرصاص وجد الذهب في قعرها.

مذ ذاك بدات متاعب المعلم ، فقد اخذ الكونت يلح في طلب المزيد من الذهب .

وقال الكونت : « حتى الان كنت اعتقد ان سوبربوللنجيريانوس كان اغبى ثور في الوجود . اما الان فقد بدات اكتشف انه ليس غبيا ، بل هو عجوز نذل ، يعرف كيف يصنع الذهب ، ولكنه لا يريد ان يصنعه . فاذا لم اجد في صباح الغد كمية مقبولة من الذهب في الفرن فسأتحدى الاجيال المقبلة – التي سترميني بالنذالة حتما لهذا العمل – فانتزع شاربيك من مكانهما ، ايها المعلم ، وآمر بجرك الى قمة اعلى ابراج قصري وقذفك من اعلاه . وهذا الذي اقوله سانفذه دون ريب . »

قال ذلك ودار على عقبيه ، ومضى فتناول عشاءه ، ونظر الى روزنامته ليرى في اي قرية من قراه كان يمكن ان يقضي ليلة هنيئة . ورش بعض العطر على شعر شاربيه الاحمر القليل، وركب جواده خارجا من القصر .

اكرر القول ان هذا قد حدث في الليل . وفي فجر اليوم التالي كان المعلم ما يزال يهرش راسه .

تنهد المعلم تنهدة اليمة وهو يبتعد ممتعضا عن خلطته العجيبة الرائحة، وقال : « واحسرتاه ! لم يعد في وسعي شيء ، وليس من الممكن ان اتوصل الى صنع الذهب ، حتى النحاس المطلي لم يعد لدي شيء منه، وكل النقود التي استطعت ان احصل عليها من الكونت سكارليت بعثت بها الى ابني غير الشرعي . لقد جاهدت ثمانية وثمانين عاما فلم يرافقني فيها غير الاخفاق الدائم ، وها انا الان لا استطيع ان انقذ نفسي من هذا المازق. ان سكارليت الوغد سينفذ وعيده حتما . ومنذ خمس سنوات فقط ، ولسبب كهذا ، سمر صديقي المحترم

وزميلي بافنوشيوس راتنواينيس من اذنيه على بوابة القصر ، حتى اصبح اشبه بخفاش ضال . واحسرتاه ! كيف استطيع ان انقذ نفسي !» .

هكذا بكى المعلم وهو ينحني مرارا متعددة الى الارض ليمسد لحيته الطويلة .

وفجاة ، من خلال مصيبته ، سمع في الممر وقع اقدام . وفي هنيهة قصيرة فتح الباب . وفي وسط المطبخ الجهنمي وقف الكونت سكارليت بحاجبين يرقص الغضب والوعيد فيهما . كان الكونت طويل القامة ، نحيفا ، انمش، ذا شعر قصير احمر، ووجه عظمي شرير . وكانت يداه كقطعتي بوفتيك كبيرتين ، وركبتاه نافرتان من بنطلونه المحكم كأنهما بشران خبيثان . ورفع يديه الارستقراطيتين المغطاتين بالشعر الاحمر ، وراحت عيناه الصغيرتان الشبيهتان بعيني خنزير تبحثان متسائلتين :

— والان ايها المعلم !؟

فتخاذلت قوى المعلم فجاة ،وحاول ان يجلس على الهواء . وبلع ريقه بلعة كبيرة جافة ، واصطبغ وجهه بلون العقيق الشاحب وهمس :

— والان ، ماذا تعني هذه ال « والان ؟ » .

كانت لحظة رهيبة . وكانت جدية الموقف تتمثل في ان الكونت قد نهض في هذه الساعة المبكرة جدا على خلاف عادته . كان واضحا انه ما يزال مصمما على تنفيذ تهديده . فخيم على الغرفة صمت مثل صمت الموت ، لا يقطعه غير الرائحة الغريبة المنبعثة من خليط الاعشاب التي تغلي غليا مستمرا في صمت الغرفة .

واخيرا قال المعلم : «ايها الكونت، ليس هناك ذهب !» .

فصرخ به الكونت : « اذن هات لحيتك وشاربيك لانتفها » . ثم تقدم من المعلم ، فاسرع هذا يقذف بلحيته الطويلة على كتفيه لكي تتدلى على ظهره ، وصرخ يائسا :

— قف يا سيدي !

فاجفل الكونت ، وقال : ماذا لديك ؟ .

فتاوه المعلم قائلا : ليس هنالك ذهب ، ولكن ثمة ما هو افضل من ذلك !.

— ماذا ؟ .

في هذه اللحظة بلع المعلم سوبربو للنجير يانوس ريقه بلعة هائلة،ولكنها في هذه المرة لم تعد جافة ، فقد ابتل فمه بالتفكير في كذبة لطيفة خطرت له في تلك اللحظة . لقد احس بانه قد نجا .



عيسى الناعوري

•

وعاد الكونت يكرر سؤاله : ماذا ؟.

— شيء افضل من الذهب .

— حجر الفلاسفة ؟.

— كلا .

— ماذا اذن ؟.

فقال المعلم : سعادة الحب الدائم .

ثم بلع ريقه من جديد .

فأخذ الكونت يتحسس انفه ، وكان هذا علامة الارتياب . وسأل :

— هل ينبغي عليّ ان ابلع هذا ايضا ؟ ابتلع هذه الكذبة ايضا كما ابتلعت ، مدى عام ونصف العام ، كل الاكاذيب التي كنت تخدعني بها لكي تطيل اقامتك هنا ، ايها اللطخة الوقحة في سماء العلم ؟.

ان الارتياب نصف التصديق ، كذلك قال المعلم في نفسه . وجعل ينمي كذبته باعظم ما يستطيع من الاطمئنان ، فقال :

— في اثناء تجاربي اكتشفت الطريقة التي يمكن بها الاستيلاء على قلوب النساء .

ففتح الكونت عينيه الواسعتين . لقد كان معروفا بشدة الاعجاب بسحر النساء ، الا انه لم ينجح قط مع نساء طبقته . فاشرق وجهه بالغبطة .

وتابع المعلم كلامه : لقد مزجت الفضة بالتراب وغليته في عصير الاسبيرولا المعطرة ، ثم في عصير جذور الزعرور الاوروبي . هذه هي مواد التركيب ، اما النسب الكيميائية التي ينتج عنها السحر العجيب فهذه هي سري الخاص . هذا هو ...

ثم رفع غطاء احد الاوعية . كانت هناك فعلا كرات صغيرة من الفضة تغلي في عصير شيء ذي رائحة هائلة الغرابة . لقد كان يطبخ ذلك الخليط كله طوال الليلة السابقة كآخر محاولة للنجاة .

وسأل الكونت : ثم ماذا ؟.

— ومن غبار الفضة هذا سأصنع لوحا رقيقا من الفضة ، وبهذا اللوح الرقيق ستتفضل بتغطية مقبض سيفك . وحين ترافق السيدات لا تدع يدك اليسرى تفارق مقبض السيف . ولن تجد سيدة عظيمة ، او بارونة ، او كونتيسة ، او دوقة ، او حتى ملكة تستطيع ان تقاوم اغراء هذا السحر . بهذا السيف ستنجح مع اية سيدة في الدنيا .

فهمهم الكونت : همْ !.. هل استطيع ان اثق بهذا كل الثقة ؟.

— لن تعرف ذرة من الاخفاق يا سيدي !.

ثم قال المعلم في نفسه : انني بهذا اكسب بعض الوقت . ولكي يتجنب عناء الانحناء الى الارض رفع لحيته

على ذراعه وراح يمسدها شارد الفكر.
وسرعان ما انتشرت الاشاعات في المنطقة كلها ، وفي القصور والقلاع المجاورة اخذت النساء ذوات الملابس المطرزة بالذهب يتهامسن ويتبادلن النظرات ذوات المعاني . وفي كل مكان كانت تدور الاحاديث حول سيف الكونت سكارليت ذي المقبض الفضي.
ولم تكد تمضي ثلاثة ايام حتى تلقى المعلم سوبربوللنجيريانوس ثمانية عشر عرضا من سادة عظماء متعددين اخرين يعدونه فيها بوظائف دائمة ، وبأي مبلغ يشاؤه من المال ، الى جانب المنام والطعام ، اذا ما رضي فقط بان يعلمهم سر التركيب الكيميائي للمقبض الفضي . غير ان الكونت سكارليت عرض اكثر من اي واحد منهم ، ولم يسمح بان يغادر المعلم قصره .
في اليوم الرابع عشر شرع الكونت يحاول الغزو بمقبضه الفضي. وقادته المغامرة الاولى الى القصر المجاور . وكان رب القصر مسافرا الى بلاد اجنبية ، ولم يكن في القصر سوى سيدة القصر الجميلة في صحبة وصيفاتها الثلاث والثلاثين . لقد لقد كانت هذه الارض عزيزة الصيد زمنا طويلا على الكونت سكارليت ، اما الان فان النساء كن يترقبنه بفضول غريب مستثار . كانت النساء الثلاث والثلاثون جميعا يرغبن في استقبال الكونت ، وقد اصررن كلهن على انهن لا يخشين المقبض الفضي . غير ان سيدة القصر صرفتهن جميعا ، واستقبلت الكونت على انفراد ، وهي التي كانت مثال الاخلاق والفضائل النسائية .
كانت تجلس على اريكة كبيرة حين دخل الى الغرفة « العظم الاحمر » — كما كن يدعون الكونت سكارليت فيما بينهن — فنهضت ومضت لتلاقيه ، وقدمت له كرسيا . فجلس السيد العظيم على مقعد منخفض ، وكعادة الفرسان حينذاك ، وضع السيف بين ركبتيه . فنظرت اليه السيدة خجلى بعد ان كانت حتى تلك اللحظة لاتجرؤ على ان تنظر نحوه ولو نظرة خاطفة. فدهشت لرؤيته . ذلك السيف الذي كان مرصعًا بالجواهر والحجارة النفيسة ينتهي بصفيحة فضية بسيطة جدا . ان مرآه ليبعث على الحيرة وهو يشع في ضوء الغرفة الضئيل كالانوار الروحانية الغريبة .
ولم يكن في وسعهما ان يريا النساء الثلاث والثلاثين يختلسن اليهما النظر من خلف الستائر والسجاجيد الصفيقة . ولكن هؤلاء النسوة اقتنعن بان الكونت كان ذا قوة لا يمكن مقاومتها ، على الرغم من انهن كن يعتبرنه مثيرا للضحك والسخرية قبل ذلك .
وقال العظم الاحمر : الطقس جميل !
وقالت السيدة : نعم، جميل جدا.
واحست بكثير من الراحة حين رأت ان الكونت لم يضع يده على مقبض السيف .
واردف الكونت : لا هو حار جدا ولا بارد جدا .
وقالت السيدة : لطيف جدا في الواقع .
وتابع الكونت كلامه : عند الظهر حار وفي الليل بارد . اما الليلة فان غروب الشمس اروع من كل شيء اخر ، واروع ما يكون اذا ما قضى المرء وقته في صحبة امراة جميلة .
قال هذا ووضع يده الضخمة على مقبض السيف . وكانت السيدة تنظر اليه بعينين واسعتين ، فاخذت ترتعد قليلا . وشرعت الستائر الثقيلة تتحرك ، وسرى في اوصال السيدة شعور لذيذ .
وقالت النساء اللواتي في الصف الاول للواتي يقفن خلفهن : لقد وضع يده عليه !...
وسرى الهمس بين الجميع : لقد وضع يده عليه ... لقد فعل ذلك حقا !...
ولم تستطع سيدة القصر ان ترفع عينيها عن اليد التي تستريح على المقبض. وكان الكونت الاحمر يتحدث حديثا غبيا ، ولكن السيدة لم تصغ الى شيء مما كان يقوله . وقالت في نفسها : « ايه ! ان الامر وهم بليد كله ، فلماذا ينبغي ان ادير بالي اليه؟ »
ولكنها ما كادت تدير عنه بصرها حتى حدث ما اجبرها على معاودة النظر اليه . لقد سحب الكونت مقعده المنخفض واقترب منها وهو يضغط على مقبض السيف بكل قوته . فدب الخوف في نفس السيدة . وقال لها الكونت مبتسما : لماذا تخافين مني ؟ انني لا اريد ان اسيء اليك ! على العكس ...
فهمست احدى النساء خلف الستائر : لعل الافضل ان نبتعد الان ونتركهما وحدهما ...
وسمع صوت ناعم يتسلل بخفة حين انسحبت النساء من خلف الستائر واصابعهن على شفاههن . وقال الوغد الاحمر بلهجة ذائبة : لقد احببتك منذ امد طويل ! فاحست السيدة بأن شيئا قد وقف في حلقها، ولكنها قالت لنفسها ان هذا مجرد وهم .
— انني اعبدك !
ولم تستطع المراة ان ترفع عينيها عن يده . فقالت محتجة : ان كنت تحبني فارفع يدك عن مقبض سيفك.
فصرخ الكونت في فورة غرامه المحتدم الحار ، وقال وهو يقرب مقعده اليها اكثر من قبل : كلا، ابدا.
كانت السيدة ترتعش كورقة في الريح المسائية . وهتف سكارليت : انت رائعة الجمال . انك جميلة كنجمة الصبح . واقول لك بصراحة انني ساجعلك حبي الوحيد ..
واشتدت قبضته على السيف . فقالت المراة في نفسها مرتعبة : انه لن يدع مقبض سيفه .. لن يرفع يده عنه ... لقد ضعت ... وحاولت ان تنهض ولكنها في تلك اللحظة عينها احست بشعرات شائكة من شاربين نحيفين تلامس شفتيها . فارادت ان تصرخ ولكن الكونت كان



وجه الحبيب

* * *

يا موجع القلب كاد القلب ينصعق ... ما مثل عينيك لا جفن ولا حدق
ما أروع الليل يغفو في ظلالهما ... وجمرة الصبح في خديك تأتلق
يا ملهمي الشعر حسبي من مناهله ... ثغر يذوب على لألائه الشفق
تكاد روحي اذا قبلت مبسمه ... تهوي على الشفة السفلى وتنزلق
كأنها بتلات الورد مثقلة ... بالشهد او برعم مالت به العنق
وجه تبارك من سواه مكتملا ... فكل جارحة يسمو بها نسق

وديع ديب

قد حبس كتفيها بين ذراعيه الطويلين القويين ، فسقط راسها الجميل كالزهرة ، واحست بأن سكارليت يمسك راسها الذابل براحة يده الضخمة . وراحت القبلات تنهال متلاحقة كالمطر على شفتيها .

وكان الكونت يقول بين القبل العديدة ، وهو ما يزال يشد على سيفه بيسراه : انك لي !... فهتفت السيدة لاهثة مثله : انني لك !...

* * *

ـ ماذا كانت الوصفة ؟

القى « البارون الازرق الداكن » هذا السؤال على المعلم وهو يحتضر بعد عشر سنوات ، وكان قد جاء بذلك العالم من قصر سكارليت بعد ان دفع مئة الف قطعة ذهبية . لقد كان عاشقا كبيرا للنساء ، وقد راى ان حصاد الكونت سكارليت من النساء الجميلات خلال السنوات العشر الماضية كان وافرا بسبب ما في مقبض سيفه الفضي من سحر عجيب .

ـ ماذا كانت الوصفة ؟

فجار المعلم من فراشه : ـ اقسم بنيران الجحيم انه لم يكن هناك اي وصفة ... وسواء أكان ما هنالك مقبضا فضيا ، ام زرا نحاسيا ، ام علبة صفيح ، ام مسمارا ذهبيا في حذوة حصان ، فالامر كله سواء . كل ما في الامر ان سلوك الرجل ينبغي ان يوحي بثقته من نفسه . هذه هي الوصفة كلها ، وليس ثمة مهرب من الرجل الواثق من نفسه . ولكن ينبغي ان تؤمن انت نفسك بالمقبض الفضي، والا فان النساء لن يستطعن الايمان به . فأنت اذن ، سواء آمنت بمقبض فضي ، او زر نحاسي ، او علبة صفيح ، او مسمار ذهبي في حذوة حصان ، فان مزاياك ، وجمالك ، وثقتك بنفسك ، واخلاصك تتجمع كلها في ذلك الشيء عينه .. واما الان ، وقد قلت لك هذا ايها البارون الازرق الداكن ، فانك ستذهب الى النساء بمقبضك الفضي دون فائدة ، لانك لن تؤمن به بعد الان ، وستشعر النساء بأنك لم تعد تؤمن بقواك الذاتية ، ولهذا ستهزم في كل مكان ايها البارون الازرق الدا ...

ولم يستطع ان يتم عبارته ، لان البارون الازرق الداكن ضربه على راسه ضربة عنيفة . لقد كان لا بد له من الموت على كل حال بعد عشر دقائق، ولكن البارون راى من الافضل ان يعينه بهذه الطريقة السريعة ...

وهكذا توفي المعلم كونراد سوبربو للنجيريانوس ، الفشاش ذو الشعر الرمادي ، والحقيقة على شفتيه .

عمان — عيسى الناعوري

الخزاف

•

هبَّ يسعى والصبح يحبو كطفل   دون وعر من القفار وسهل
شحذ العزم وانبرى يتحدى   كمريد جهل الزمان بجهل
ليس تثنى يد له كجبان   عن مراد او كان يعيا بثقل
صقلته الارزاء صقل يد القين   حساما فصلا جلته لفصل
واستساغ الحرمان في المربع المحل   وفاء لمربع منه محل
وتساوى لديه صبح وليل   وخزة اللوم في العذاب كنصل
عالم الناس للزوال تراب   وفروع الاشياء تنمى لاصل
ويهيل القضاء ما رفع الناس   ويطوي ما شيَّدوه كظل

* * *

كتل الطين في مغاور غفل   كركام في مطلع الشرق غفل
وكأن الظلام ذرَّ عليها   نفض صبغ ينداح عن مثل كحل
من رآها أشاح عنها ازدراء   ولوى الجيد دونها عن جهل
حمأ لازب كأطباق ليل   جاد مسنونه بواكف طل
في ثنايا أطباقها صفحات   لم تنقط ولم تزين بشكل
عظة الغابر السحيق فصول   من كتاب الزمان تشجي وتسلي
فتراها قد أوجزت دون سهل   وتراها قد أسهبت قيد رمل
ليس هذا التراب غير رفات   لجدود ومجمل عن كل

* * *

ما استخف الخزاف يوما بشغل   او توانت يد له عن شغل
تجد الطين مسلسا بقياد   دون كفيه كالاسير بغل
سال كالشمع طيعا وتلوى   في يمين الخزاف ريشا كصل
او كخيط من ذائب الفجر يهمي   من فتوق الغمام لينا كوبل
قطع تستلين دون يديه   مثلما راحت الوساوس تملي
قطع تستجد حسنا لراء   كأمان في حسن سمت وشكل
فهي حينا تدور مثل كرات   بيد لا تضيق ذرعا بجمل
وهي حينا قوراء مثل هلال   وتراها قد استدقت كظل

* * *

ويمد الخزاف كف سقيم   لفتات من الفضار بذل
وجرت كفه تمر على الطين   بحرص شحيحة وبخل
فانجلى الطين دونه عن يقين   كانبلاج الاصباح ليس ببطل
وتجلت له الحقائق سطرا   من تراب على صحائف رمل
ليس هذا التراب شيئا زريا   أو حقيرا حتى يداس برجل
ان هذا التراب مجمل فصل   عن عصور وموجز عن كل

دمشق   عدنان مردم بك



محمـد اديـب العامـري

تطور الثقافة في الاردن ومستقبلها

بقلم محمد اديب العامري

* * *

الرجـل المثقـف

ان عنوان كلمتي هذه يحدد تقريبا مضمون الكلمة كلها ، فانا انوي ان ابسط في لمحة سريعة ما كانت عليه اوضاع الثقافة واحوالها في الاردن منذ مطلع هذا القرن ، وكيف تدرجت هذه الاوضاع عبر السنين وتغيرت وتطورت حتى بلغنا الاوضاع التي نمر بها الان . وساقفيّ على ذلك بكلمة فيما استشعر انه ستكون عليـه حالة الثقافة في الاردن في المستقبل القريـب .

وحين اتحدث عن الثقافة هنا اتذكر ما كان يعنيه العرب في زهو حضارتهم بالادب . فقد كان «الادب» عندهم هو الاخذ من كل علم بطرف. ولم يكن يومئذ استعمال معلوم لكلمة «الثقافة» بل كان الاديب هو الرجل المثقف الان . فالثقافة على هذا هي الاخذ من كل علم او فن بنصيب عام.غير اننا نضيف الى ذلك اليوم الاختصاص في ناحية من المعرفة تعتبر منطلقا للثقافة او اساسا لها . وليس الاختصاص في ناحية بعينها هو المطلوب بل هو اي اختصاص ، سواء اكان ذلك في التاريخ أم الطبيعة أم التجارة أم الجندية أم في أي علم من العلـوم او فن من الفنون.على انه يظل للنظرة العلمية في هذا العصر اهميتها الخاصة في الثقافة . وليست الشهادة العلمية لازمة للرجل المثقف ، فمن الناس غير المتعلم ، ولكنه اقرب الى الثقافة من نوع من الرجل يدري كثيرا من حقائق العلم .

والمثقف على كل حال يكون قد مر بشيء من العلم المنظم في المدرسة او الجامعة ، او بنحو من هذا كله ، ولكنه كمثقف يؤمن بالفضائل ، ويعزف عن الانانية وشوائب الحقد والضغينة والتكالب المادي . وهو كما قال الدوس هكسلي رجل « يخضع اعصابه لارادته ويحكم عقله فـي عواطفه ، فلا يجيش ولا يطيش ولا ينفجر ، وان غضـب لشيء فانه يغضـب للحـق » .

فالانسان المثقف اذا اردنا الاجمال هو انسان ذو الهام بجملة المعارف العامة ، وصاحب نظر علمي الى المسائـل ، ورجل مبدأ فـي الحياة يقوم على فكرة اصيلة من الحق .

ونحن في الاردن ، ولو اننا بلد صغير ، قد اخذنا باسباب الثقافة أخذا انتج ثقافة «اردنية» ذات طابع مميز يمكن التحدث عنه وتحديد معالمه والتنبؤ بمستقبلـه .

بواعـث الثقافة العامة ومقاييسها

عندما يتحرى المرء عناصر الثقافة في امة ، لكي يستطيع البحث عن اصولها ويتتبع مراحل تطورها ، فانه يعمد اول ما يعمد الى النهضة التعليمية من حيث المدارس وعددها وانواعها ، والمعلمون وكفاياتهم ومناهج التعليم ومحتوياتها والكتب المدرسية ومستوياتها . ونتيجة ذلك كله هو الطابع الذي تولده هذه النهضة .

وهناك بالطبع حركة التاليف والترجمة والنشـر : تاليف الكتب المدرسية وغير المدرسية على شتى انواعها والصحف اليومية والاسبوعية والمجلات الشهرية وسواها .وهنالك ايضا نهضة المسرح والنهضة الفنية جملة والسينما ، والان التلفزيون . ولا ننسى في هذا المجال النـوادي الادبية والاجتماعية والعلمية التي تشارك في انشاء حركة الثقافة العامة وتواكبها . وتعتبر الموسيقى عند الامم الراقية عنصرا هاما في تكوين الثقافة ، ويجب علينا ان نضمها نحن للعناصر الاخـرى التي تؤلف الثقافة وان كان حظنا منها قليلا ، وقليلا جدا .

وتقاس الثقافة في بلد من البلدان بمدى انتشار هـذه البواعث والمصادر التي تبني صرح الثقافة . فازدياد نسبة التعليم وانتشار حركة التاليف واستبحار الحركة الفنية – كل ذلك يعتبر مقاييس للثقافة وتجري بها المقارنة بين بلد واخر .

ومن المقاييس الاساسية الموجزة التي تصلح وسيلة عامة للتعبير عن مدى القابلية لانتشار الثقافة وتعمقها هو نسبة المتعلمين في البلد ازاء نسبة الاميين . ويؤخذ المقياس عادة للذين بلغوا سن الخامسة عشرة وتجاوزوها . ومع ان هذا المقياس حسابي بالطبع الا انه ذو دلالة مقبولة على ما نحن بصدد الكلام عنه ، لان التعليم (أي ازالة الامية ازالـة دائمة) هو اساس قدرة الانسان على التقدم في العلم والترقي فيه والى التمكن من التزود من مصادر الثقافة ووجوهها الاخرى .

تطور الثقافة في شرقي الاردن لعام ١٩٥٠

في تتبع هذا الموضوع يطيب لي من اجل المقارنة الواضحة والمتعـة في آن معا ان اعود الى مطلع هذا القرن قبيل انحسار الاستعمارالتركي عن هذا القسم من العالم العربي الذي اصبح فيما بعـد شرقي الاردن وفلسطين . ويمكننا ان نقسم هذه الفترة الى فترتين : الفترة الاولى تقع قبل سنة ١٩٥٠ والفترة الثانية تقع بعد هذا التاريخ . وتقع الفترة الاولى التي سنتناولها بالبحث ما بين سنة ١٩١٨ حين غادر الاتراك هذه البلاد وبين سنة ١٩٥٠ . والفترة الثانية تقع بين ١٩٥٠ ووقتنا هذا . وسنة ١٩٥٠ هي السنة التي وقع فيها انضمـام الضفتين ، شرقي الاردن والجزء الشرقي من فلسطين .

لقد ترك الاتراك في البلاد وضعا متشابها في الضفتين الشرقيـة والغربية من البلاد ، وكانت العوامل التي اثرت في الناحيتين متشابهة بشكل عام ، لولا ان حظ فلسطين من الحركة التعليمية والنهضـة الثقافية كان اكبر من حظ شقيقتها شرقي الاردن في عهد الاتراك وعهد الانتـداب علـى السـواء .

فاما في التعليم : فقد تسلمت امارة شرقي الاردن من الادارة التركية نظاما خاصا به ، اذا صحت التسمية ، يتالف من عدد قليل مـن الكتاتيب وبضع مدارس ابتدائية مدة التدريس فيها ثلاث سنوات ، واربع مدارس « رشدية » مدة التدريس فيها ست سنوات ، ولا شيء غير ذلك . وكانت المدارس الاربع في السلط والكرك ومعان واربد .

ومن المعلوم ان المدارس الابتدائية ، مثل الكتاتيب ، لم تكن تعلم الا القرآن الكريم والدين والخط والحساب باللغة العربية . اما الصفوف الرشدية وعددها ثلاث فوق الابتدائية فكانت تعلم التاريخ والجغرافيا والطبيعيات ومبادىء الهندسة باللغتين العربية والتركية .

وعندما اسست الدولة الاردنية عام ١٩٢١ كان ذلك ايذانـا ببزوغ نهضة جديدة عربية في البلاد ، فما تقدمت الشهور في تلك السنة حتى اصبح في البلاد (٢٥) مدرسة يقوم بالتدريس فيها ٥٣ معلمـا و ٦ معلمات ، وميزانية للمعارف قدرها نحو ٦٠٠٠ جنيه في السنة . وفي سنة ١٩٢٣ اصبح في البلاد ثلاث مدارس ثانوية متوسطة في السلط واربد والكرك ، ثم ما عتّمت مدرستا السلـــط واربد ان اصبحتا ثانويتين كاملتين .

وبعد هذا تطور نظام المعارف تطورا حديثا وان جاء وئيدا ، ففي سنة ١٩٣٠ مثلا اصبح عدد المدارس في شرقـــي الاردن نحو ٦٥ مدرسة واصبحت ميزانية المعارف انذاك نحو ٢٠ الف دينار . وهذه ارقـام بسيطة ازاء ارقامنا الحالية ، ولكنها تمثل بدايات النهضة النشيطـة التي ظلت مستمرة متزايدة منذ ذلك الوقت الى عهدنا هذا .

ومما يجدر ذكره ان مدرسة عمان الصناعية كانت قد اسست منذ البداية لتعليم الطلاب المتخرجين من المدرسة الابتدائية مهن النجارة والحدادة والخيزران وغيرها .

ومنذ بداية هذه النهضة سنة ١٩٢١ دخلت العلوم الحديثة الـى المدارس ، ومعها روح التعليم المصرية والبرامج الحديثة ، فأصبحت الدراسات على العموم شبيهة بما نعهده الان . فهناك مختلف المناهج اضافة الى الدين واللغة العربية . وكان يقوم بالتدريس معظم الوقت معلمون وفدوا الى شرقي الاردن من الاقطار العربية المجاورة وبخاصة فلسطيـن وسوريـا .

وكانت روح التعليم عالية ، فقد كانت نفوس المعلمين انذاك تغلي بالحقد على الاستعمار وتشرئب الى نهضة وطنية واسعة تعيد وحـدة العرب ومجدهم التالـد .

وبعد سنة ١٩٣٠ كما المحنا شملت شرقي الاردن نهضة علمية علـى نطاق اوسع واسرع . نعم ظلت البلاد متأثرة بالادارة البريطانية التي كانت تعين البلاد ماديا وتحدد خطوات نهضتها الثقافية ، غير ان الملك عبدالله الملك العربي العالم رحمه الله ، والحكومات الوطنية والشعب الاردني كان لهم اندفاع اقوى . لذلك نجد انه بعد ان كانت الحكومة تلزم الاهالي في بعض الحالات بارسال اولادهم الى المدارس ، اخذ الناس يرسلون هؤلاء الاولاد فلا يجدون لهم فيها مقاعد . وعم هـذا الضغط على الحكومة في المدن والقرى ومضارب البدو ، فكان يصل سنوات كثيرة الى حد الازمة حقا .

واخذ عدد المدارس والمعلمين يزداد ، فما وصلنا الى عام ١٩٥٠ حتى بلغ عدد المدارس الابتدائية (ومعها رياض الاطفال) ١٠٠ مدرسة وبلغ عدد المدارس الثانوية الكاملة (ومعها الاعدادية) ٨ مدارس .

اما فـي (٩٦٤ / ٦٥) لو عدت مدارس الضفة الشرقية الحكومية وحدها فان عدد هذه المدارس يزيد على ٧٠٠ مدرسة .

اما عدد المعلمين والمعلمات في المدارس الحكومية والاهلية معا فهو ٥٤٨٥،في حين ان عدد التلاميذ والتلميذات بلغ ما ينيف على ١٩٢ الفا.

وكان عدد المدارس الاهلية اول الامر يعادل عدد المدارس الحكومية ، بـل يزيـد . اما الان فان عدد هذه المدارس يعـادل ثلث المدارس الحكومية،وذلك في المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية على السواء.

واما حركة التاليف والنشر في شرقي الاردن : فقد ظلت محدودة الى وقت انضمام الضفتين في اوائل سنة ١٩٥٠ اذ كان عدد الكتب المؤلفة قليلا ، كما ان عدد الصحف اليومية كان يتراوح بين صحيفة واثنتين ، والاسبوعية مثل ذلك . وكانت المجلة الشهرية تظهر آنـا وتختفي ليظهر غيرها .. وهلم جرا . نذكر من الكتب التي ظهرت في هذه الفترة « الامالي السياسية » (١٩٣٩) و «مذكراتي» (١٩٤٥) للمرحوم الملك عبدالله ، وكذلك « تكملة المذكرات » بعدئذ (١٩٥٠) كما نذكر كتبا اخرى منها كتاب نموذج الفضائل الاسلامية للشيخ نديم الملاح ، وتاريخ شرقي الاردن لبيك وخمسة اعوام في شرقـــي الاردن للمرحوم المطران بولس سلمان وغيرهم. وظلت جريدة الاردن تظهر منذ تلك الايام الاولى الى الان وظهر غيرهابعدئذ من الصحف يومية واسبوعية وشهرية ، مثل مجلة الحكمة للشيخ نديم الملاح .

وظهرت قبل سنة ١٩٥٠ كتب اخرى محدثة لمؤلفين اردنيين منهم عبد الحليم عباس وحسني زيد الكيلاني وعيسى الناعوري ويعقوب العودات كما ظهرت بدايات للتاليف المدرسي لعدد من الاساتذة المعلمين .

واما حركة المسرح : فلم تعد نطاق الفرق المدرسية وفرق النوادي والجمعيات . ولم تكن المرأة خلال القسم الاول من هذه الفترة لتظهر على المسرح ، اذ كان هذا منتقدا ، فكان الرجل يقوم بدور المرأة . وكان مضمون المسرحية في الغالب موضوعا يدور حول البعث العربي او الروح الاسلامية او حول البطولات التاريخية .

واما الموسيقى : فلم تزد على عمل المغنين والحداء والعازفيـــن الشعبيين غير المتعلمين ، يعزفون على الناي والات اخرى محدودة ، مع الغناء والحداء للقطع العامية او العربية المـــوروثة ضعيفة اللغة غريبة التركيب .

وفي اثناء هذه الفترة الفت فرقة الجيش العربي الاردني لتعزف على عدد غير قليل من الالات ، لكن الامر فيها ظل مقتصرا على المارشات العسكرية والقطع الموسيقية العربية والاجنبية المقتبسة ، دون تاليف او تطور . ولسنا نورد هذا في معرض الغض من قدر الفرقة فان هذه الفرقةتطورتوكثر عدد افرادهاالى حد ممتازبالقياس الى حاجةالجيش.

تطور الثقافة في فلسطين الى سنة ١٩٥٠

خلّف الاتراك وراءهم في الجزء الغربي من البلاد الذي سمي بعدئذ فلسطين وضعا في التعليم واسباب الثقافة الاخرى من تاليف ونشر افضل من الذي خلفوه في شرقي الاردن ، وبخاصة عدد المدارس الاهلية الوطنيـة والاجنبيـة .

لقد تركوا البلاد وفيها عدد من الكتاتيب منتشر هنا وهناك في المساجد وغيرها . وكانت هذه كالعادة تعلم القرآن الكريم والديـــن والخط والحساب ، كما تركوا فيها عددا من المدارس الابتدائية يبلغ « ٩٥ مدرسة حكومية يتعلم فيها ٧٧٥٨ تلميذا وتلميذة ، اي عشر الاطفـال الذين كانوا انذاك في سن التعليم الابتدائي ومجموعهم ٧١٩٣٣ » .

ولم يكن في جميع انحاء فلسطين عند اندلاع نيران الحرب العالميـة الاولى سنة ١٩١٤ « غير مدرسة ثانوية كاملـــة واحدة » هي المكتب السلطاني في القدس . وكانت هناك مدرستـــان ثانويتان متوسطتان (مكتب اعدادي) احداهما في عكا والثانية في نابلس .

وكانت المدارس الاهلية والطائفية في فلسطين اكثر عددا ، فقد كان هناك سنة ١٩١٤ (٥٠٠) مدرسة ابتدائية اهلية وطائفية ، وكان بيـن المدارس الاجنبية « مدارس امريكية والمانية وانجليزية وفرنسية وايطالية وروسية ، بينها عدة معاهد ثانوية ومدرسة للمعلمين واخرى للمعلمات يديرها الروس ، ومدرسة للمعلمين يديرها الالمان » . وتعود هـذه الكثرة الى عهد «الامتيازات» التي تنازل بها الاتراك للدول الاوروبية ، التي تسابق هذه الدول لتكون طلائع الغزو والكسب .

وفي اواخر العهد التركي في فلسطين اسست في القدس (خلال الحرب العالمية الاولى) الكلية الصلاحية . وكانت مدرسة دينية عالية عصرية ، واعتني فيها باللغة العربية عناية كبيرة بسبب محاولة تركيا في اخر عهدها ارضاء العرب الذين ارادتهم في الحرب الى جانبها .

وحل الانتداب البريطاني سنة ١٩١٨ محل الحكم التركي في فلسطين فسار التعليم زمن هذا الانتداب بخطوات وئيدة ظل الامر اثناءها سجالا

بين الاهالي والهيئات الوطنيه وبين حكومة الانتداب من جهة اخرى ، اذ كان التعليم طوال هذه الفترة مقتصرا على عدد قليل من المدارس الابتدائية (مدة التعليم فيها ست سنوات) . وفي سنة ١٩٢٠ تضاعف عدد المدارس العربية ، وما زال هذا العدد يزيد حتى بلغ حين ترك البريطان البلاد سنة ١٩٤٨ نحو ٢٥٠ مدرسة . وكانت المدارس الاهلية الوطنية والاجنبية اكثر من مدارس الحكومة عددا . وكان التعليم في جميع هذه المدارس حسنا على العموم ، وان ظل نطاقه ازاء مطالب البلاد ضيقا .

وكذلك كان الحال في المدارس الثانوية متوسطة وكاملة . فقد كان عدد هذه المدارس قليلا ، وان كان مستواه على العموم حسنا ايضا . وقد اقتصر التعليم الثانوي المتوسط الى سنة ١٩٤٨ على نحو ٢٠ مدرسة موزعة في انحاء البلاد . اما عدد المدارس الثانوية الكاملة فلم يزد على خمس ، ولكنها كانت متنوعة . فقد كانت المدرسة العامرية بيافا ثانوية كاملة تميل الى التعليم التجاري . وكذلك مدرسة خضوري في طولكرم ، اذ كانت تميل الى التعليم الزراعي ، ودار المعلمات في رام الله . اما المدرسة الرشيدية في القدس والكلية العربية فيهما فقد بلغ التعليم فيهما مرحلة تزيد عن الدراسة الثانوية الكاملة التي مدتها اربع سنوات بعد الدراسة الابتدائية .

« وبلغ عدد الطلاب والطالبات في مرحلتي التعليم الثانوي الحكومي في نهاية العام الدراسي ٩٤٥ / ٤٦ ١٣٥٩ طالبا و ٢٢٦ طالبة فقط ». وزاد هذا العدد قليلا عند انتهاء الانتداب فبلغ نحو ٢٥٠٠ طالب وطالبة. فلما انزاح الانتداب البريطاني عن فلسطين انطلق التعليم من عقاله ، واخذ ينهض نهضة واسعة ، وبدت بوادر هذه النهضة واضحة بصورة خاصة حين انضم الجزء الشرقي من فلسطين الى المملكة الاردنية وسارا معا في حركة سريعة هي اساس النهضة التعليمية الحاضرة في المملكة.

اما حركة الفكر والتاليف والنشر : والحكومة الفنية في فلسطين في هذه الفترة ، اي منذ اخر العهد التركي الى سنة ١٩٤٨ ، فقد كانت ايضا اوسع واعمق من مثيلتها في الاردن . لقد تاثرت هذه الحركة بنفر من شباب العرب الذين اتموا تحصيلهم في المدارس الثانوية « السلطانية » في القدس وبيروت وطرابلس الشام ، وكذلك الذين اتموا تحصيلهم في الازهر الشريف بمصر والكليات العالية في الاستانة . وكان هؤلاء رواد نهضة ثقافية ، وان كان اثرهم ضعيفا لان عددهم كان قليلا ، ولانهم توزعوا في اقطار مختلفة . ومع ذلك فقد الف عدد من هؤلاء الكتب وانشاوا الصحف والنوادي والجمعيات حتى في العهد التركي نفسه .

وكان رواد التاليف والنشر في تلك الحقبة خليل بيدس والشيخ يوسف النبهاني . وصدرت في القدس في مطلع القرن ، بعيد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، مجلات الاصمعي والقدس والنفائس العصرية والمنهل والنفير وغيرها . وصدرت جريدة فلسطين في يافا سنة ١٩١١ واستمر صدورها الى الوقت الحاضر .

وكان من رواد التاليف والفكر في تلك الفترة (١٩١٨ — ١٩٤٨) مؤلفون ومترجمون مثل المرحومين عمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح واحمد سامح الخالدي واسعاف النشاشيبي وخليل السكاكيني وغيرهم مثل خليل بيدس وعادل زعيتر ولا يتسع المجال هنا لذكر غيرهم .

وظهرت انئذ جرائد الجامعة العربية والجامعة الاسلامية والدفاع وغيرها ومجلات الفجر والكلية والعربية وغيرها .

وخرجت نهضة المسرح : اثناء هذه الفترة عن النطاق المدرسي ، ولكنها ظلت ضعيفة تدعمها وتذكيها زيارات الفرق المسرحية المصرية بين اونة واخرى مثل فرق يوسف وهبي وفاطمه رشدي وعلي الكسار.

ويمكن ان يقال بالقياس والتقدير ان نسبة التعليم بين الرجال في فلسطين في هذه الاونة بلغت ٤٠ بالمائة .

الحركة الثقافية في المملكة بعد سنة ١٩٥٠

في سنة ١٩٤٨ وقعت حوادث فلسطين كما هو معلوم ودخل الجيش العربي الاردني الى البلاد وانضمت الضفة الشرقية منها الى المملكة الاردنية انضماما واقعيا تدريجيا حتى اعلن هذا الانضمام رسميا مطلع سنة ١٩٥٠.وفي هذه الفترةوبعدها سارت الضفتان معا وخاضتا معركة نهضة تعليمية ثقافية تعتبر نموذجا في التطور ، على الرغم من ضيق الرقعة وقلة الامكانيات .

والحقيقة هي ان شعور الناس بان حكومتهم اصبحت عربية منهم ولهم حفزهم الى الضغط على وزارة التربية والهيئات التعليمية لفتح المدارس على اختلاف انواعها من ابتدائية واعدادية وثانوية وعليا . ولم يقتصر هذا الضغط على فتح المدارس في المدن بل تجاوزها الى القرى ، حتى القرى الصغيرة ، ومضارب البدو . وقد ساعد على ابلاغ صوت الشعب الى الحكومة نواب البلاد واعيانها في مجلس الامة. ومما دعا الى الاندفاع في سبيل التعليم العائدون الفلسطينيون الذين شعروا بالحاجة الى التزود بالعلم كوسيلة للعيش. واندفع الاردنيون جميعا في هذا التيار فارتفعت ميزانية التعليم . ولم تكف مدارس الحكومة فاندفع الطلاب الى سائر انواع المدارس الاهلية من وطنية واجنبية.وفي فترة وجيزة بعد انضمام الضفتين ازداد عدد المدارس ازديادا مفاجئا وازداد مع ذلك بطبيعة الحال عدد الطلاب من بنين وبنات . وتنوعت مع هذا النمو المدارس ، فافتتحت دور المعلمين اولا ثم برزت الحاجة الى التعليم المهني فادخل على المناهج مزيد من التعليم الزراعي والنشاط الصناعي والتجاري ، ورفع مستوى التعليم الزراعي. ثم افتتحت المدارس الصناعية وصفوف خاصة بالتعليم التجاري .

ومع اندفاع التربية والتعليم في هذه النهضة النادرة المثال وقيامها بتعليم ٧٠ بالمائة من طلاب البلاد وطالباتها ، قامت جهات رسمية وغير رسمية جديدة للمشاركة في هذه الخدمة وتحمل قسط من العبء . بذلك اخذت مدارس القوات المسلحة تعلم نحو ١٠ بالمائة من طلاب المملكة وطالباتها . واخذت وزارة الشؤون الاجتماعية ودائرة الاوقاف العامة تقوم بقسط من المهمة . وتقوم وكالة الغوث بتعليم نحو ١٧ بالمائة من الطلاب والطالبات .وهناك الهيئات الاهلية الوطنية التي تعلم ٩ بالمائة والهيئات الاهلية الاجنبية وتعلم ٣ بالمائة .

واذا عدنا الى الارقام التي تبين عدد المدارس والمعلمين والطلاب وجدنا عدد مدارس وزارة التربية والتعليم بلغ في سنة (٩٦٤ / ٦٥) ١٣٤٨ مدرسة .وقد اصبح عدد مدارس البنات الان اعلى نسبة بكثير مما سبق ، فمن هذه المدارس ٨١٠ للطلاب و ٥٣٨ للبنات . ومعظم هذه المدارس في القرى ، فان العدد هنا ١٠٧٢ مدرسة . اما عدد المعلمين والمعلمات فيبلغ ٧٢٨١ ونسبة عدد المعلمات اصبحت الان اعلى من قبل ، فالمعلمون ٤٨٣٢ والمعلمات ٢٤٤٩ . وارتفع عدد الطلاب والطالبات ، فهم الان في مدارس الحكومة ٢٤٠ الف ثلثهم من الطالبات . واذا اخذنا جميع انواع المدارس بالاعتبار ، الحكومية وغيرها ، بلغ عدد الطلاب والطالبات ٣٥٣ الفا ، اي ان ٢٠ بالمائة من السكان هم من الطلاب الذين يختلفون الى المدارس ، وهي نسبة تطل على النسبة التي تعرفها الدول الراقية .

ونعتقد ان عدد المتعلمين بين الرجال في الاردن اصبح نحو ٤٠بالمائة اما بين النساء فربما اصبح ٢٠ بالمائة وربما كانت هذه اعلى النسب في اقطار العالم العربي ما عدا قطرا واحدا ، هو لبنان .

وهنالك ظاهرة في هذا التوسع لا بد من التعريج عليها لمن تهمه هذه الدراسة من ناحية الاثر الثقافي في المجتمع . فالحقيقة هي ان هذا التوسع الثوري في التعليم لم يرافقه ارتفاع في المستوى العلمي والثقافي للخريجين من الطلاب والطالبات . والذي وقع هو ان عدد المعلمين من ذوي الكفاية اللازمين لهذا التوسع لم يواكب عدد التلاميذ الذي تضاعف مرات كما ذكرنا . ومن اجل ذلك اخذ خريجو المدارس الثانوية يعلمون في هذه المدارس نفسها . وقل نسبيا عدد الجامعيين الذين يجب ان يتالف منهم ملاك التعليم في المدارس الثانوية ،فكانت النتيجة هبوطا عاما في المستوى التعليمي والمستوى العلمي والثقافي للخريجين . ويقدر هذا الهبوط بنحو سنتين دراسيتين او يزيد على

المستوى الذي كان يبلغه التعليم في فلسطين وشرقي الاردن على السواء.

وقد اثرت هذه الظاهرة وما رافقها من مؤثرات اخرى على المستويات الثقافية للمتعلمين ، فنشطت الجهات المسؤولة الى معالجة هذا الامر الخطير ، فسارعت الى افتتاح دور المعلمين والمعلمات كما قلنا ، وارسلت البعثات ، واخيرا ظهرت الجامعة الاردنية .

وليس هبوط المستوى التعليمي وحده هو الذي اثر على المستوى الثقافي في الناشئة خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة ، بل كان للكتاب المدرسي غير الجيد وللصحيفة المصورة غير الموزونة وللسينما والمؤثرات الاخرى الاجنبية والمحلية اثرها في المستوى الثقافي والخلقي الذي انتهى الينا او انتهينا اليه.وهو مستوى يقلق عن حق افكار المصلحين وذوي الشعور بالمسؤولية من رجال هذه الامة .

نهضة التاليف والترجمة والنشر والنهضة الفنية

بعد انضمام الضفتين سار رجال التعليم والعلم والفكر والثقافة معا فأخذوا ينتجون انتاجا متزايدا ، وان لم يكن والحق يقال جديرا بالاردن ، لان هذا الانتاج ، فيما عدا التاليف المدرسي ، قليل ، وقد لا يرتفع مستواه الى الحد المناسب في كل كتاب يصدر .

فاذا بدأنا بالتاليف المدرسي قلنا ان المؤلف الاردني ، والان من الاردن كله بلا تمييز ، قد سد الفراغ الذي حدث للحاجة الى الكتب بعد التوسع الكبير الذي مررنا على ذكره في نهضة التعليم ،والتمعت هنا اسماء كثيرة مثل اسحق فرحان وعبد الملك الناشف وموسى الغول وعبدالحليم عباس وحافظ الدجاني وراضي عبدالهادي وسيف الدين الكيلاني وخليل السالم وعلي حسن عوده وذوقان الهنداوي وجريس القسوس وسعيد الدره وشاز ابو تايه وانعام المفتي ووصفي عنبتاوي وحسام اشتيه ومحمد صيام وغيرهم كثير . ولقد جاء عدد من هذه الكتب في مستوى حسن يعتبر من احسن المستويات في التاليف المدرسي.

من هؤلاء المؤلفين وغيرهم من شارك في نهضة النثر الفني والشعر الحديث والترجمة مثل الدكتور اسحق موسى الحسيني وعبدالحليم عباس وعيسى الناعوري واحسان عباس ومحمد يوسف نجم ونجاتي صدقي ويوسف هيكل وقدري طوقان ورشيد زيد الكيلاني وحسني زيد الكيلاني وناصرالدين الاسد واكرم زعيتر والدكتور وليد قمحاوي والبدوي الملثم وعبدالحميد ياسين وعبدالرحمن بشناق وعبدالرحيم عمر وعارف العارف وسليمان موسى وغيرهم.وبعضهم يجيد فيصل الى المستوى العربي العام في القطر المصري والقطر اللبناني . ويقدر ما يصدر الان من الكتب في الاردن بنحو عشرين كتابا في السنة،وهو قليل.

فاذا انتقلنا من الكتاب الى الصحيفة الفينا عدد الصحف من يومية واسبوعية وشهرية ومتخصصة يزداد الى حد بارز ، فعندنا الان صحف الجهاد وفلسطين والدفاع والمنار والاردن اليومية . وهناك اخبار الاسبوع وعمان المساء وجروزاليم تايمس الانجليزية الاسبوعية . وهنالك مجلة الافق الجديد الادبية الشهرية . وهناك الحوادث والصحفي ومجلة الجندي والمجلة العسكرية الشهرية ، وتصدران عن ادارة التعبئة المعنوية والعلاقات العامة في القوات المسلحة . وهناك رسالة الاردن ورسالة المعلم الشهريتان اللتان تصدرهما وزارتا الاعلام والتربية والتعليم . وهذه تبلغ الست عشرة مطبوعة ، وهو عدد حسن اذا اعتبرنا عدد السكان .

اما النهضة الفنية في الرسم فان حقيقتها احسن حظا من شهرتها ، فهناك الشريفة وجدان ناصر ومهنا الدره ومنى السعودي واحسان ادلبي وعبدالمجيد ابو ديل وغيرهم.ومع اني لا اعرف بالتفصيل مذهب كل منهم ، وبعضهم سمعت به ولم اتعرف اليه ، فانهم جميعا يبرزون الطابع الشرقي والعربي والاردني في اعمالهم الفنية . والالوان التي تعمل بها الشريفة وجدان جميلة غاية الجمال حقا ، ولها طابع فلسفي في الموضوع وتجريدي في الاسلوب . ولمهنا الدره على صغر سنه قدم راسخة في الرسم التقليدي والانطباعي ، وكذلك الحال مع عبدالمجيد الذي يبرع في الاسلوب التقليدي والتجريدي على السواء . ويستعمل عبدالمجيد الالوان المائية في اكثر رسومه .

اما نهضة المسرح : فما زال ابرزها يأتي عن طريق الفرق التي تنشئها المدارس والجماعات . ولكن وزارة الاعلام قد ابدت مؤخرا مساعدة لفرقة او اثنتين من فرق الفنون الشعبية في بعض مدن المملكة السياحية بغية السير بالنهضة المسرحية الى امام . والذي نعتقده هو ان هذه الحركات الفنية وحتى الادبية والشعرية تحتاج في الاردن خاصة على عون وتنظيم حكومي يدفعها الى التقدم .

واما الناحية الموسيقية : في هذه الفترة فالامر فيها غير مختلف الا قليلا . فان مدارسنا لم تعتن طوال العهد بها بهذا الفن الا لماما ، وبعض المدارس الاهلية والاجنبية بخاصة توليه شيئا من اهتمام ، ولكن هذا الشيء غير واف بالفرض . واما النهضة الشعبية في هذا الباب فلم تزد عما اشرنا اليه قبلا ، الا قليلا .

ولعل عدم العناية بهذه الناحية من عوامل الثقافة والمتعة يعود الى صعوبة الموضوع.فان كورنيليوس هيرشبرغ يقول « ان الاستماع الى عمل موسيقي كامل ذي قيمة يستغرق وقتا طويلا ، والدراسة كمجملها تحتاج الى وقت يزيد عما تستغرقه اية دراسة اخرى ، فحتى الموسيقي المتمرن ، بعد عشرين عاما من الدراسة الجادة ، يعتبر جاهلا تماما فيما يتعلق باكثر الوان الموسيقى العالمية تقريبا » أ.هـ. ولكن حتى هذا الفن الذي يحتاج الى هذا المراس الطويل هو من فطرة الانسان العادية – لا الفائقة فقط – ويخضع للدراسة اليومية .

ولا ريب مع ذلك في ان الموسيقى في الاردن قد تطورت مؤخرا بعض الشيء حتى لتستطيع الان ان تستفرد الاغنية او القطعة الاردنية ، التي تلاقي هوى في البلاد العربية ايضا. وقد تطورت الموسيقى العربية جملة في البلاد العربية الاخرى وخاصة في لبنان ومصر ، واقبل الاردنيون على مسايرة هذا التطور . وليس المجال هنا مجال البحث عن طبيعة هذا التطور ولا عما يتحدث العارفون عنه ، غير ان قسما من الاردنيين يتثقف تثقفا خاصا بالموسيقى الغربية او بالغربية والعربية معا ، ولكن هذا التثقف لم يمتزج بالعوامل الاخرى في شخصية الاردني المثقف الا نادرا .

تبلور الثقافة الاردنية وطابعها

اذا رجعنا القهقرى لنستخلص فكرة موجزة عن اثار التعليم والتاليف والنشر وبدايات النهضة الفنية في البلاد منذ مطلع هذا القرن الى الان ، لاحظنا ان الثقافة الاردنية في زمن الاتراك على ضعفها قد انتجتها بعض المدارس العالية تدعمها الروح الاسلامية تتفجر منها هنا وهناك روح القومية العربية تلتمس مخرجا من الحكم التركي الى حالة من الاستقلال لاسترجاع المجد العربي القديم والثقافة الاسلامية الماضية.

فما انتقلت البلاد الاردنية الى عهد الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الاولى خضعت الجهة الغربية منها لحكم مباشر من هذا الانتداب فيما تأثرت به الجهة الشرقية تأثرا محدودا فقط بسبب من نظام الحكم الوطني العربي الذي قام في البلاد .

فاما الفلسطيني الذي اصاب بداية افضل من الثقافة فقد ناله شيء من التأثر والتفكك من جراء ما اناخ عليه من الحكم الاستعماري وما ضعضع كيانه من التغلغل الصهيوني والتفرقة الفردية ، يقابل ذلك الانصهار المفيد الذي تعرض له من ثوراته ضد الانتداب والصهيونية . ومن ذلك كله تشرّب شيئا من الحضارة الحديثة التي حملها معه رجل الاستعمار ومهاجر الصهيونية .هذا مع اشرئباب مستمر الى الاستقلال والوحدة العربية وتطلع الى الخلاص من نير الاستعمار والصهيونية على اساس عربي اللون والجوهر ، اسلامي التراث والمظهر ، فنتجت من ذلك كله شخصية الفلسطيني العربي الذي يثور على الاستعمار ويتوجه الى العمل في جد وسرعة ، وفي تكامل من الشخصية لا يعيبه الا اثر جرح الماضي المنكأ بالفردية والعائلية والثقة المزعزعة .

واما الاردني من الضفة الشرقية فقد كان اسعد حظا من زميله

الفلسطيني بالحكم الوطني العربي الذي ساد بلاده فتكونت من ذلك شخصية وان لم تتمتع بالمستوى الثقافي الذي بلغه شقيقه من الضفة الغربية الا ان اصالته في الخلق العربي والفروسية لم يمسسها ضر ، فتطورت ثقافته وعروبته مندمجة بالروح الاسلامية . وهذا كله في النهضة الحديثة امتزج بشيء من النظرة العلمية مع التشبثبالتقاليد العربية وتماسك الصفات الخلقية ، والميل الى النزعة القبلية ، وهو مثل شقيقه الفلسطيني جدي الاطوار موجز القصد شديد النشاط .

فلما اندمج الشقيقان بضم الضفتين اخذت تتبلور من ذلك شخصية الاردني ، وتكاد الان صفات الشخصية الاردنية تكون مستقلة واضحة، تجمع بين الحسنيين في الوطنية الحديثة والايجاز في الاداء ، يزين ذلك كله خلق يرتكز الى الاصالة العربية دون اكراه او رياء ، ويتحلى بمظاهر الحضارة الحديثة دون اسراف في المظهر او انحراف في العادة او خروج على التقاليد العالية .تلك هي ثقافة الرجل الاردني، وكل ما نامله خلال التطور القادم ان لا ينجرف في تيار المظاهر السخيفة بالانصراف الى البذخ او اللهو مما ارى قرنه يذر في حلقات ضيقة من بعض الاوساط الثرية او الجديدة على الثراء ، كما نامل ان يرعوي الشباب عما اخذ ينساق اليه بعضه من مظاهر المراهقة الخلقية التي زحفت من الغرب ، وقد شكا منها الغرب ، ونشأت من ياس الحرب ونجونا نحن من الحرب.

ولست انكر القارىء الكريم اني اجد شخصية الاردني ، وقد عملت فيها هذه العوامل التي ذكرنا ، حدا وسطا بين شخصيات الرجال العرب في ثقافتهم المختلفة . ولعلي اتمنى ان تتبلور شخصياتهم على مثال ما تم عندنا في هذه البقعة من العالم العربي لتتاثر فيما بعد بالتطور الجدي وحده .

مستقبل الثقافة في الاردن

بعد ان بلغنا هذه المرحلة من الحديث عن بواعث الثقافة في الاردن ومراحلها وصفاتها قد يستشرف القارىء الكريم مستقبل الثقافة في الاردن فيتساءل عما سيكون عليه سمتها واتجاهها .

وفي الحقيقة اني اجد الثقافة الاردنية ، شأنها شأن الثقافة في اقطار العالم ، تتاثر باتجاه اهلها وجهدهم ، كما تتاثر بما يتفاعل معها في البلاد الاخرى .

فحتى لو لم يمتد نطاق المملكة الاردنيةالهاشمية عننطاقها الجغرافي الحالي ، فاني اتوقع امتدادات اخرى للثقافة في الاردن بسبب انتشار التعليم على نطاق اوسع حتى يعم افراد الامة الاردنية كلها . ان هدف الشعب كما نتفهمه من اندفاعه الى العلم هو ان يحصل على هذا العلم كل فرد في الامة ذكرا كان ام انثى . وقد برزت منذ الان احاديث وخطط عن ازالة الامية في الاردن خلال عشر سنوات . ومن اجل ذلك لا يتجه التفكير الى فتح المدارس الكافية لاستيعاب جميع الذين هم في سن التعليم فحسب ، وانما يتجه الى تعليم الكبار ايضا .وتعليم الكبار وعي قديم جديد في بلادنا ، فنحن لا نزال نذكر منذ الصغر كيف كانت بعض الجمعيات الخيرية تفتح صفوفا ليلية لازالة الامية يختلف اليها اناس كبار السن . غير ان تعليم الكبار سيتخذ بعد اليوم شكلا منظما تقوم الدولة بالقسط الاوفر منه تساعدها في ذلك الهيئات الدولية .

واني اعتقد انه لا يمر جيل (٣٠ سنة) على هذا الوقت حتى نكون قد تخلصنا كل التخلصمن مشكلة الامية وما يلازمها من مظاهر التخلف.

وازالة الامية هي مفتاح التطور . وما اصدق من قال « آه لو ان الناس جميعا يقرؤون ويكتبون !» ومعنى ذلك انهم بعدئذ يندفعون في كل سبيل للتطور والخروج من حالة الجهالة الى حالة الحضارة .

وبعض الناس يتخوفون من انتشار التعليم . ولو كنا اول امة تهدف الى تعليم جميع ابنائها لكان للتخوف سبيل ، ولكننا اذ نتطلع الى الامم التي كانت جاهلة الجهل كله او بعضه ، وكانت بذلك ضعيفة الموارد منخفضة المكانه ، نرى كيف ادى اخذها باسباب العلم الاولى (الذي ازال امية الناس) الى زوال الضعف عنها والذل واستبدال القوة والمنعة بذلك الوضع الاولي الكريه .

وستقود الجامعة الاردنية والمعاهد العليا ، التي تنبثق عنها وتظهر معها ، حركة التاليف القوي ، كما ستقود حركة البحث العلمي الذي يولد في كلتا الحالتين رجالا يتبارون ورصفاءهم من الدول العربية والاجنبية فيؤدون الامانة للحضارة الاردنية والعربية والعالمية على النحو الذي اداه اسلافهم من قبل.

ومن اجل ذلك كله اثق ان الانتاج الاردني في كل باب من ابواب المعرفة والثقافة سيطرد رقيا ويرتفع سوية حتى يباري الانتاج العربي في مصر ولبنان وغيرهما ، وفي الاقطار الاوروبية والامريكية . وسيزداد عدد المكاتب الناتجة سنويا باقلام كتاب اردنيين تقف دون انتاجهم الان حواجز الشهرة والمقدرة وتسهيلات النشر والحواجز العادية . وقياسا على ذلك سيرتفع شأن الصحيفة يومية كانت ام اسبوعية ام شهرية الى الدرجة التي تقرأ فيها الصحف على قدمالمساواة مع مثيلاتها في الشرق العربيوفي الغرب.

وحركة اخرى من مظاهر الثقافة الاردنية اثق ان سيكون لها مستقبل باهر جدير بالاردنيين ان يعرفوه ويتشبثوا به ويظاهروه .وهو ايفاد المعلمين او رحلتهم الى الاقطار العربية الشقيقة . ان هذه الحركة تشمل في معظمها الان معلمي المدارس الابتدائية ولعلها بعد زمن تشمل معلمي المدارس الثانوية والعالية كذلك . واني لاعتقد ان الاردن بما آتاه الله من موقع مناسب في العالم العربي ، وبما اتصف به الاردني المثقف ، مهيا تهيئة ملائمة ، لارضاء الشعوب العربية في اوضاعها الخلقية والعلمية . وكل ما ارجوه في هذا السبيل هو ان يفطن الاردنيون الى صفتهم هذه ، والا ينساقوا مع تيار الانحرافات والتحيزاتالسخيفة الاجتماعية المختلفة التي قد تفسد عليهم هذه الصفة وتحرمهم هذا الامتياز الذي يرضى عنه العرب جميعا .

وحركة ثالثة اعتقد انه سينالها التطور على نحو لم ينلها الى الان. وذلك بفعل عوامل الانتشار الادبي والوعي العلمي والمستوى الثقافي عامة ، وهي النوادي والجمعيات .

لقد كان حظ الاردن مع الاسف من هذه المؤسسات قليلا الى الان ، وقد كان لها نشاط في فترة قصيرة في فلسطين قبل الحرب العالمية الثانية ، وكذلك كان الشأن في شرقي الاردن في الوقت نفسه ، لكن هذه الحركة اصيبت بنكسة ، واثق انها ستقال من عثرتها وانه سيكون لها مستقبل زاهر في الاردن الجديد .

اما المسرح فسوف يزدهراكثر مما ازدهر في الماضي ، ولعل العوامل التي اكتنفت نهضة المسرح المحدودة في الاردن ، وحددت هذه النهضة، تزول وتضمحل وتحل محلها عوامل اخرى تنهض بهذه الناحية .ويبدو ايضا ان وزارة الاعلام تعد العدة للقيام بهذا العبء . وعندي ان هذا هو المخرج الصحيح في الاردن للنهضة بالمسرح وبما ينشئه المسرح من الاثار البعيدة في آفاق الفكر ورهافة الحس . ومع ان مساعدة الدولة للمسرح ما هي الان الا فكرة ، فاني على شبه اليقين بان هذه الفكرة ستتحقق.اما كيف تفتح الوحدةسبيلالرقي لهذه النهضةالثقافية بابوابها جميعا ، فلست احتاج الى بيانه فيما اعتقد . ويكفي ان نلاحظ في التاريخ الماضي وفي العصر الحاضر كيف تهيء الدول الكبرى بطبيعة الحال السبيل لهذه النهضة ، بسبب من تعدد الكفايات وامكانيات النبوغ واتاحة المناخ الطبيعي للتكتل اللازم للمظاهر الثقافية المختلفة، ومنها المسرح والفن والنوادي والجمعيات .

ولسنا الان بسبيل البحث في المعنى المقصود من الوحدة العربية . غير ان كتلة واحدة على الاقل تتالف ، تكفي من حيث عدد السكان والثروة المادية لتهيئة الجو الضروري للتطور الثقافي في سائر اشكاله وابوابه .

عمّان — محمد اديب العامري

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

للشاعر المتنبي المعروف بيتان من الشعر يؤتى بهما احيانا عند بعض الشارحين والمفسرين للتدليل على عنايته بالفلسفة واقوال الحكمة ثم للتدليل على فساد عقيدته . ولا اعلم ان احدا من الشارحين او المفسرين قد تعرض الى فك المغلق في معاني هذين البيتين او الى تبيان اصل الافكار المضمنة فيهما . والذي يظهر لي ان هذه الافكار وامثالها كانت معروفة لدى الخاصة من الناس في ذلك الزمان ، سواء كان المصدر اغريقيا او فارسيا او هنديا او من الاسكندرية . ومن يقف على آراء بعض الفرق الاسلامية وبعض الزهاد والشعراء والفلاسفة بين المسلمين عموما والعرب خاصة في العصور العباسية يجد ان هذه الاراء كانت معروفة في امكنة اخرى وانها كانت مدار بحث وجدل عند اصحاب العقول والمفكرين . فمن الصالحين مثلا الجنيد ، كان ملما بالفلسفة الافلاطونية المحدثة ، والمعري الشاعر كان متأثرا بفلسفة هندية فارسية جاء طرف منها في مقدمة كليلة ودمنة ، والفرقتان الاسلاميتان الحسَّانية والكيسانية كانتا تقولان بشيء من اقوال السفسطائيين الاغريق. وها هوذا المتنبي يقول باقوال لعلها مستقاة من اقوال السفسطائيين واقوال افلاطون وارسطو. اما بيتا المتنبي فهما :

١ ـ هوِّن على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلم

٢ ـ فقيل تسلم نفس المرء باقية وقيل تشرك جسم المرء في العطب

والبيت الاول في معناه ، كما يبدو لي ، يمكن ان يفسر بأن الحقيقة لا وجود لها في هذا العالم . وان الذي نشعر بوجوده في حال اليقظة انما هو من حيث الحقيقة كالحلم الذي لا وجود له في خارج ذهن الحالم . وهذا هو رأي السفسطائيين الاغريق وعلى راسهم بروتاكورس (٤٨٠ ق.م) وكورجياس (٤٨٠ ق.م) . فهم يقولون ان الحقيقة في هذا الكون وهم باطل ، ولا وجود لشيء على الاطلاق ، وان ما نشعر به يختلف باختلاف الشاعر وباختلاف الوقت والزمان . فالذي اشعر به انا خلاف الذي تشعر به انت ويشعر به زيد او عمرو ، فلا يوجد شيء حقيقي نتفق عليه . وليس في امكاني ان افهمك ما لدي انا من شعور او احساس بالموجودات ولا في امكانك انت ان تفهمني ما لديك من شعور او احساس . فالامر متحلل من كل ضابط . وهذا هو راي الفرقتين الاسلاميتين الحسَّانية والكيسانية . والامر متروك لكل انسان على حدته ، يفعل كما يتراءى له ، وليس لاي انسان ان يفرض رأيه على انسان اخر ما دامت الحقيقة لا وجود لها وما دام الناس غير متفقين على حقيقة او مبدأ مقبول. ويقول بروتاكورس لا يوجد شيء على الحقيقة. والاشياءالتي نشعر بها تختلف باختلاف الاشخاص . فالذي اراه انا واعتقد بحقيقته ، انت لا تراه ولا تعتقد بحقيقته فلا وجود اذن لحقيقة كلية، وانما تختلف الحقائق بالنسبة الى الاشخاص ، فهي ضائعة مفقودة . والفرد بنفسه هو معيار كل شيء في هذا العالم. ويقول كورجياس لا يوجد شيء على الحقيقة ، وان وجد شيء ما فلا سبيل الى معرفة وجوده ، ولو عرفنا بوجود شيء فلا يمكننا نقل هذه المعرفة الى غيرنا . ومعنى ذلك ان كورجياس ينادي باستحالة المعرفة ، وينادي تبعا لذلك باستحالة الاتفاق على مبادىء اخلاقية .

هذه باختصار اراء السفسطائيين الاغريق في هذاالوجود وحقيقته وفي امكان معرفةالاشياء. وقد تعرض هؤلاء لهجوم عنيف شنه عليهم افلاطون وارسطو . ولكن هذه الاراء عادت الى الظهور في القرون الوسطى تحت اسم الفلسفة الحقيقية Realism واسم الفلسفة الاسمية Nominalism وجرى ما جرى بينهما من نزاع مرير ادى في بعض الاحيان الى المضاربة والقتال بين اتباع هذا المذهب واتباع ذاك . وكان للفيلسوف العربي ابن رشد دخل في نزاع اخر ، بما كان يقول فيه من عدم بقاء الروح ومن الاراء المادية . فقد ذكر لانك Lange في كتابه عن تاريخ المادية ان ابن رشد بفضل فلسفته الرشدية ادخل فكرة الفلسفة المادية الى اوروبا او مهد لها . كما ان هذه الفلسفة احدثت انشقاقا في صفوف رجال الدين في القرون الوسطى ، مما اضطر الكنيسة الى محاربتها . وهو بحث خارج عن صددنا ، وانما نشير اليه على سبيل المناسبة .

اما البيت الثاني للمتنبي فله علاقة ماسة بفلسفة افلاطون وارسطو . ولعل القارىء الكريم يذكر من نفسه **او مما قلناه في**مقالات سابقة ان افلاطون يرى ان الجزئيات لها كليات تجمع بينها في فكرة ذهنية جامعة . فالانسان على اختلاف افراده يشترك في كلية جامعة وهي الانسانية، وكذلك الحيوان على اختلاف انواعه يشترك في فكرة جامعة هي الحيوانية . وكذلك النبات يشترك في النباتية وهكذا . ولكن بعض الكليات اعم من بعض ، كالحيوانية ، فانها اعم من الانسانية لان الحيوان يشترك فيه الانسان والحيوان الصحيح. ولذلك فان الحيوانية جنسية والانسانية نوعية ، والجنس اعم من النوع ، او النوع اخص من الجنس . والجنسية هي ماهية الجنس essence ، والنوعية ماهية النوع . وجميع افراد الجنس يشتركون في الجنسية . وجميع افراد النوع يشتركون في النوعيه. فالانسانية مثلا ماهية تعم جميع افراد الانسان على اختلافهم ، ويرى افلاطون في نظريته المثالية Idealism

أن هذه الماهية هي الشيء الحقيقي الصحيح في الوجود وان الصور المختلفة منها الحالة في كينونة الافراد صور منسوخة عن الاصل ولا تمثل الحقيقة الا وهي ناقصة ممسوخة . هذه المثل هي التي تعرف بالكليات Universals فهي افكار موحدة وصورها المختلفة افكار مفرقة .وتوجد هذه المثل في العقل الاسمى او العقل الكلي وهو نفس هذا العالم او روحه . واذا هلك فرد من افراد النوع ؛ فان ماهية النوعية لا تهلك معه . ومعنى ذلك ان نفس الانسان خالدة .

ولكن ارسطو ، الذي لم يترك فكرة لافلاطون الا ناقضها، فقد خالف افلاطون في مسألة خلود النفس ، وقال ان النفس لا يكون لها وجود شخصي بعد الموت ، ولو انه جعل الباب مفتوحا امام فكرة الخلود وامام فكرة الفناء على السواء . وهذا هو السبب في ان بعض الباحثين يعتبرون ارسطو بانه يأخذ بفكرة الخلود وان البعض الاخر يعتبرونه بانه يأخذ بفكرة فناء النفس بفناء الجسم ، ومن هؤلاء ابن رشد العربي الذي لم يؤمن بخلود النفس ، وكان لرايه هذا تاثير كبير في الفلسفة الدينية المسيحية ، مما احدث انشقاقا في صفوف رجال الدين ، كما ذكرنا ، وادى الانشقاق الى خلق طبقة من المفكرين الاحرار ،ولعل هذه الطبقة اول من سن سنة التفكير الحر في اوروبا .

وقد قرات مرة في احد الكتب قول احد المؤلفين وهو ان المسلمين الان يجب ان لا يغضبوا اذا راوا الغرب ناشطا في حركة التبشير الديني لان ابن رشد العربي المسلم كان سببا في خلق تشويش في افكار رجال الدين في اوروبا قبل ذلك .

وعلى كل ، فان هذه الخلافات في مسألة خلود النفس وفنائها بين فلاسفة اليونان على اختلاف ازمانهم وبين الذين نسجوا على منوالهم من بعد كانت كما يظهر معروفة في بلاد الشرق الاوسط باجمعه تقريبا ، حتى قبل ظهور ابن رشد في القرن الثاني عشر الميلادي ، او القرن السادس الهجري ، وقبل ظهور المتنبي في القرن الرابع الهجري . ويدل على ذلك عبارة وردت في ترجمة ابي القاسم عبدالله بن عبد الرحمن الاصفهاني لحياة المتنبي. فالاصفهاني هذا يقول عن المتنبي : « وهو في الجملةخبيث الاعتقاد ، وكان في صغره وقع الى واحد يكنى ابا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسه وأضله . » ثم يشير الى ابيات من شعر المتنبي ويذكر البيت الاول الذي ذكرناه ويقول انه على مذهب السوفسطائية . وهو قول صحيح ويدل على معرفة الاصفهاني ايضا بالفلسفة اليونانية . ولكنه عند اشارته الى البيت الثاني يقول : « فهذا من يقول بالنفس الناطقة ويتشعب بعضه الى قول الحشيشية .» وعبارة النفس الناطقة في الاصل من ارسطو . اما قول الحشيشية الذي اشار اليه الاصفهاني فلم اقف على تفاصيله في كتاب من الكتب المعروفة التي تبحث فيهذه الامور ، ولم يشرحه لنا احد من الذين تولوا شرح اشعار المتنبي ، على ما اعلم . ولعل الشارحين العرب كانوا يشرحون المعاني من ناحية لغوية صرفة بغض النظر عن الافكار الفلسفية التي تنطوي عليها هذه المعاني . وقد يكون هذا الاتجاه اللغوي المفرط هو السبب في ضياع كثير من الافكار التي كان الشعراء يسترونها بالفاظ وتعابير خاصة او كانوا يدورونها لنا بصورة لغوية خاصة . ولا ادل على ذلك من تفسيرين وجدتهما في شرحين مشهورين لديوان المتنبي للبيت :

هوّن على بصر ما شق منظره   فانما يقظات العين كالحلم

فالشارح الاول لهذا البيت يقول : « وهو من قول الحكيم « كرور الايام احلام ، وغذاؤها اسقام والام . » ولست ادري ما معنى هذا الكلام المنمّق المسجّع ؟ اما الشارح الاخر ففسر البيت بقوله : « فان ما تراه في اليقظة شبيه بما تراه في النوم ، لان كلا منهما يلبث قليلا ثم ينقضي فكأنه لم يكن .» هذا التفسير يقطع على الدارس سبيل البحث ويفقر الفكر .

وقد جرّنا البحث في معنى هذين البيتين الى التعرض الى الفلسفة الاغريقية القديمة ، ولا سيما ما يتعلق بفلسفة افلاطون وارسطو والسوفسطائيين من قبل . وقد ذكرت آنفا لمحة عن فلسفة افلاطون بشأن الافكار المثالية او الافكار الكلية . وهذه الافكار لها علاقة بالنفس في راي افلاطون . لان هذه الافكار تعرفها النفس من الازل وهي منفصلة عن الجسم ، فاذا حلت في الجسم عادت اليها هذه الافكار عن طريق التذكر ، وتكون هذه الافكار في حالة تجسد النفس عبارة عن صور كلية ذهنية منتزعة من الافكار الاصلية التي كانت تعرفها النفس قبل حلولها في الجسد . اما الافكار المثالية او الكلية الاصلية فهي ليست ، في راي افلاطون ، صورا ذهنية لا تقوم الا في العقل ، بل هي اشياء حقيقية روحية موجودة خارج العقل ومستقلة عنه . واهم هذه الافكار المثالية واسماها فكرة (الخير) ، وهي متطابقة مع فكرة الاله الواحد . فالنفس اذن في راي افلاطون كانت موجودة قبل اجتماعها بالجسم، وكانت تعيش في حالة تتمكن معها ، اما بالالهام واما بالمباشرة ، من معرفة الاشياء على حقيقتها او في ذاتها . مثال ذلك ان النفس في حالة التجربة هذه كانت تعرف الجمال الكلي نفسه ولا تعرف الاشياء الجميلة بمفردها ، وكانت تعرف الدائرة المطلقة ولا تعرف الدوائر المفردةالتي نرسمها على الورق او على اللوح بأيدينا او بالفرجار . فالافكار الكلية ثابتة لا تتغير ، في حين ان الصورالدنيوية لهذه الافكار الكلية عرضة للتغيير . وحلول النفس في الجسم معناه ، في راي افلاطون ، نسيان النفس للافكار المثالية الروحية ، واستعادة هذه الافكار تكون عن طريق التذكر اولا وعن طريق تكوين الصور الذهنية من جديد ثانيا بواسطة الاحساس الجسمي . والاحساس هو الذي

يحرك العقل فيحمله على تذكر الافكار التي كانت لدى النفس من قبل . وهذه الافكار الجديدة لا تكون الا صورة ناقصة للافكار المثالية الاصلية . فالعلم ، اذن ، في رأي افلاطون هو تذكر لا غير .

وخلاصة نظرية افلاطون في المعرفة يمكن وضعها باختصار كما يلي . فالاحساس يدرك الاشياء على انفرادها ،والفهم يجمل الاحساسات في صور ذهنية جامعة . لنأخذ مثالا على ذلك عددا من الدوائر المرسومة على اللوح باشكال مختلفة . هذه الدوائر متباينة من حيث الحجم والموضع ، وقد تكون ايضا متباينة من حيث اللون وثخن الخطوط او دقتها . فالاحساس هنا يرينا كل دائرة بانها تختلف عن الاخرى من حيث الحجم واللون والموضع والرسم وغير ذلك ،ولكن الفهم يعطينا صورة شاملة تنطبق على جميع هذه الدوائر وهي فكرة (الدائرية) او صورة لدائرةمثالية تكون هذه الدوائر المرسومة صورا لها على وجه التقريب. فصورة الدائرة المثالية هي التي تعرف بالصورة الكلية للدائرة او الصورة المثالية لها . والسؤال الذي يعرض على البال هنا هو : من اين يحصل الفهم على هذه الكليات ؟ فافلاطون ، كما ذكرنا آنفا ، يرى ان هذه الكليات تأتي عن طريق التذكر ، وارسطو يقول انها موجودة في الفهم من الاصل اودعها الله في الانسان .

وكما ان نظريات الفلاسفة الاغريق في النفس قداحدثت اضطرابا في اراء فلاسفة القرون الوسطى ، كذلك هذه النظريات بشأن المعرفة والكليات والجزئيات احدثت اضطرابا اخر وشقت فلاسفة القرون الوسطى الى شطرين، اشرنا اليهما سابقا باسم « الحقيقيين » وباسم « الاسميين » وكان بينهما فريق ثالث متوسط بين الطرفين يعرف بفريق « العلم الحضوري » Conceptualism ولفهم هذه الانواع الثلاثة من الفلسفة لا بد من الرجوع الى افلاطون مرة اخرى ، مع تذكر معنى (الكليات) الذي اشرنا اليه آنفا. لنأخذ مثلا شيئا ما كالكرسي . فان الانسان اذا رأى امثلة متعددة من الكرسي فانه يجرد منها جميعا صورة واحدة تنطبق على الجميع ، وذلك بان يتذكر الصفات المشتركة بين هذه الكراسي واغفال الصفات الغير المشتركة . ثم اننا نرى طاولات عديدة في اشكال مختلفة ، فنكوّن في اذهاننا صورة كلية للطاولة ، وهكذا . فاسم او كلمة (كرسي) او (طاولة) دلالة على الصورة الكلية الذهنية للكرسي او للطاولة . ولكن لو اردنا ان نجمع بين الكرسي والطاولة والمقعد وغير ذلك في صورة كلية واحدة ، فاننا ننظر في الامور المتشابهة بينها ونجمع بينها فنكون صورة عن (المادة الخشبية) مثلا او (الجوهر الخشبي) . وقد نسير في طريقة هذا التجريد خطوة ثالثة ورابعة وهكذا. وكلما امعنا في التجريد الذهني وصلنا الى كليات معنوية تكون اثبت في حقيقة الوجود من الكليات السابقة لها ، وهذه اثبت من التي سبقتها وهكذا الى ان نصل الى الاشياء المفردة كالكرسي بعينه او الطاولة بعينها او المقعد بعينه وهكذا . فالصور الذهنية المجردة في رأي افلاطون اثبت في الوجود الحقيقي من الاشياء نفسها ، وكلما كانت الصورة الذهنية اعم فاعم كانت اثبت فاثبت في الوجود الحقيقي ، الى ان نصل الى اخر درجات التجريد الذهني وتكون هذه الصورة المجردة الاخيرة اثبت الصور في الوجود الحقيقي ، بل يكون وجودهامطلقا اوتكون واجبة الوجود .

على هذه الافكار المثالية التجريدية بنيت فكرة (الكليات) ابتداء من القرن السادس الميلادي او نهاية القرن الخامس. فاذا قلنا (كرسي) فهل معنى ذلك وجود صورة ذهنية كلية لهذا الشيء المعروف ام ان كلمة (كرسي) عبارة عن (اسم) لا غير ولا يدل على وجود صورة ذهنية ؟فالذين قالوا بوجود صورة ذهنية سموا بالحقيقيين Realists لانهم يعتقدون بوجود تلك الصورة الكلية فعلا ، والذين قالوا بوجود الاسم فقط ولا وجود للصورة الذهنية الكلية بالفعل سموا بالاسميين Nominalists والذين قالوا بعدم وجود الصورة الذهنية بالفعل وقالوا فقط بقدرة الذهن على تحصيل الافكار العامة من الاشياء المفردة سموا بجماعة العلم الحضوري Conceptualists فالحقيقيون يرون ان الصورة الذهنية لها وجود فعلي على شكل الماهيات . فالفكرة الخاصة بالانسانية مثلا معناها وجود شيء حقيقي اسمه (الانسانية) يشترك فيه جميع الافراد ، وهو الذي يسميه الحقيقيون باسم (الماهية الانسانية) والاسميون ينكرون ذلك ، ويقولون ان هذه الصورة ليست الا اسما ، ولا وجود للماهية . اما جماعة العلم الحضوري فلا يؤمنون ايضا بوجود الماهية ، ولكنهم يقولون ان الفكر الذي يجمع في الذهن الاشياء المفردة ، ولا وجود على الحقيقة الا للاشياء المفردة . ومن هنا يتبين ان الحقيقيين اقرب الى افلاطون وان الاسميين ابعد عن افلاطون وان جماعة العلم الحضوري وسط بين الطرفين ، وكانت الكنيسة فيالقرون الوسطى تناصر الحقيقيين ، وتغضب على الاسميين ، ودام النزاع حول فكرة الكليات في اوروبا مدة لا تقل عن الف سنة ، حتى ان احد رجال الفكر في القرن الثاني عشر قال ان هذا النزاع قد استنفد من الوقت ما استنفده القياصرة في فتح العالم ومن المال اكثر مما كان لقارون . وقد اختلطت القضية النزاعية هذه بالقضايا السياسية . وانتهى الامر بها الى ان دخلت في الفلسفة الحديثة على يد الفيلسوف ديكارت ، وظهرت فيما بعد بالبسة مختلفة ، وكان منها الفلسفة الحضورية الحديثة Idealism المنقلبة عن الفلسفة الحقيقية السابقة Realism ، والفلسفة المادية المعاكسة لها التي هي اشبه ما تكون بالفلسفة الاسميةالسابقة Nominalism والفلسفة الظاهرية Phenomenalism التي هي وسط بين الطرفين . ونترك البحث في الفلسفة الحضورية والفلسفة المادية ، ونتعرض للفلسفة الظاهرية تمهيدا لبحث الفلسفة الوصفية Phenomenology التي كانت هي تمهيدا

الشعر والحب

كنجمة مسافره
وقطرة من الندى بأعين الورود ساهره
وفرحة تموت في الشفاه كانت مزهره
وآهة مسلولة ، كزهرة تصفر فوق مقبره
قد صرت بعد هجرك الاليم مثل ليلة الشتاء ممطره
ان غادرت سفينة ميناءها تظل خلفها عيوني مبحره
ارى انا شيئا نبيلا في عيون كل مومس تبدو كتاجره
أحس أنة النسيم عندما تضيع في العواصف المزمجره
والمس المجروح خلف كبريائه وبسمة بوجهه مقدره
ان أطرقت مع المساء زهرة أحسها مهمومة مفكره
امد اعيني باضلع المساء حتى آخره
وآكل الاحزان أعب الظلام مثل خادم اطاع آسره
وانسج الدموع حتى في الليالي المقمره
اخط في المساء أسطري ، يمزق الفؤاد في الصباح أسطره
فان مررت مرة على الديار زرت القاهره
فاذكر بانني أعيش خلف ليلها كفرحة الشعاع من المسلول ضامره
ومر .. ولو كنجمة مسافره
فربما لليلة أعيش من دم ولحم ، لا كريشة حزينة ومقبره

القاهرة — مجاهد عبدالمنعم مجاهد

للفلسفة الوجودية وصلة الوصل بين كيركيكور والفلاسفة الوجوديين .

فالفيلسوف الانكليزي لوك Locke كان يؤمن بوجود مادة حقيقية خلاف الصورة الذهنية لشيء من الاشياء ، ولكن الفيلسوف الاخر باركلي كان ينفي وجود مادة حقيقية لاي شيء ترتسم صورته في الذهن ، وكان يقول ان كل ما في الامر هو وجود الاحساس لا غير او وجود الصورة الذهنية . ويمكن تطبيق ذلك على الاستعمال اللغوي . ثم اننا اذا كنا نعلم ولدا لغة من اللغات وقلنا كلمة (كرسي) فاننا نشير الى هذا الشيء المعروف بالكرسي فيراه الولد ويترسمه في ذهنه بالنظر او عند الحاجة باللمس ايضا . وهكذا اذا قلنا (طاولة)، فان الولد يفرق بين الشيئين بواسطة الفروق التي يلاحظها . فكلمة (كرسي) اذن تعني صورة حسية جاءت الى الذهن عن طريق النظر واللمس وغير ذلك . فالكلمة تصف لنا مجموعة الاحساسات الخاصة بهذا الشيء التي نشعر بها ، والتي اكتسبناها بالتكرار .

وهي تشير الى المظاهر او الى الاحساسات التي تقول عنها انها (كرسي) ولا تعني اكثر من ذلك ، ولا تثبت او تنفي وجود الشيء المادي حقيقة في خارج العقل او عدم وجوده . هذه الفلسفة هي الفلسفة الظاهرية ، وهي ، كما قلنا ، وسط بين الفلسفة الحضورية والفلسفة المادية . وخلاصتها ان جميع ما نتكلم به ونقوله عن الاشياء يمكن ارجاعه الى كلام او قول عن الاحساسات او المعلومات الحسية . فاذا قلت (كرسي) فأعني بذلك مجموعة الاحساسات الارتسامية عن ذلك الشيء من مسافات مختلفة ومن اتجاهات مختلفة وفي اضواء مختلفة ومن اللمس والصوت والشم عند الحاجة وغير ذلك . وفضيلة هذه الفلسفة انها تجعل الاحساسات والشيء المادي شيئا واحدا ، بعكس من يعتقد بأن الاشياء موجودة فعلا بوجود منفصل عن الاحساس بها . ولا تفرق هذه الفلسفة بين المظهر والحقيقة بل تجمع بينهما .

لندن — حسن الكرمي



نقـولا يوسـف

أديب اسحق

بمناسبة مرور ٨٠ عاما على وفاته ١٨٥٦ – ١٨٨٥

بقلم نقولا يوسف

* * *

كاتب حر ، وصحفي مصلح ، وشاعر مجدد . ولد في سورية ، وتعلم في لبنان ، ولمع في مصر ، ولجأ الى باريس ، وشغل الناس اينما حل ، ولم يلق قلمه المشتعل، حتى احرقه قبل ان يبلغ الثلاثين من عمره ..

وفي الاسكندرية كان يجول ويصول ، قبيل الثورة العرابية وفي اعقابها ، في فترة مضطربة عاصفة من حكم الخديوي اسماعيل وابنه توفيق ، فأصدر بها الصحف ، وكتب المقالات الوطنية ، والكلمات النارية ، داعيا الى الاصلاح والنهضة ، والتجديد واليقظة ، وفيا دائما لاستاذه جمال الدين الافغاني ، ولصديقيه الامام محمد عبده ، وعبدالله النديم ، ومخلصا دائما لمبادئه ورسالته .

وكانت ولادة اديب اسحق في دمشق عام ١٨٥٦ في عصر ساد فيه الولايات العثمانية ، فساد الحكم ، وتحكم الرجعية .. وتعلم بمدرسة « الاباء اللعازريين » مبادىء العربية والفرنسية ، وتعلق منذ صباه بالادب والمطالعة ونظم الشعر ..

واضطر الى الخروج من المدارس للسعي وراء الرزق ، والالتحاق بمدرسة الحياة ، فاشتغل منذ الحادية عشرة من عمره في « الجمرك » بأجر يسير يساعد به اسرته ..

وعندما بلغ الخامسة عشرة ، انتقل والده الى بيروت للعمل في البريد ، فاستدعاه اليها لمعاونته ، وهناك تعرف بأدبائها ، وكان له معهم مطارحات شعرية ومراسلات ادبية .. وفي السابعة عشرة توظف في جمرك بيروت..

غير ان ميوله الادبية ما لبثت ان دعته الى الاشتغال بالصحافة ، فأخذ يكتب المقالات في صحيفتي « ثمرات الفنون » و «التقدم» .. وترجم عن الفرنسية مسرحية « اندروماك » لراسين يتخللها مقطعات شعرية منظومة ، ومثلت بضع ليال في بيروت لمعاونة اليتيمات .. واشترك في « جمعية زهرة الاداب » التي انشأها هناك سليمان البستاني – وكانا في سن واحدة – والقى بها الخطب والقصائد . وكانت باكورة مطبوعاته كتابا سماه : « نزهة الاحداق في مصارع العشاق » . كما اشترك في تأليف كتاب بعنوان : « اثار الدهور » ١٨٧٥ مع الاديبين سليم شحاده وسليم الخوري ، وله في اجزائه الثلاثة فصول تمتاز بالاراء الحديثة والتعبير الواقعي وله عدد من القصائد في « ديوان يوسف الشلفون » .. (١)

وكان لمطالعاته كتابات الاحرار من العرب والافرنج ، وبخاصة كتاب الثورة الفرنسية الهاتفين « بالحرية والاخاء والمساواة » ، وملاحظته ما ساد العالم العربي في عصره من تأخر وركود ، ان شعر بحاجة العرب الى ثورة سياسية تخلصهم من الاستعمار الاجنبي ، والى ثورة فنية تحررهم من الاساليب والافكار الرجعية ..

ثم حدث ما دفع مجرى حياته في واد فسيح ، فانطلق هناك مدوي الصوت ..

فقد نزح رفيقه في الجهاد : « سليم النقاش » ،بفرقته التمثيلية الى الاسكندرية عام ١٨٧٦ بعد ان قام بتمثيل بعض المسرحيات في بيروت ، مقتفيا اثر عمه مارون النقاش – ١٨١٧ – ١٨٥٥ – رائد المسرح العربي ، الذي الف فرقة للتمثيل منذ عام ١٨٤٨ وكتب لها بعض الروايات – واستدعى «سليم» اليه صديقه اديب اسحق لمعاونته في مسرحه بالتأليف والتمثيل ..

وكان اديب في نحو العشرين من عمره يوم هبط الاسكندرية ، وكانت كسائر مدن الاقليم المصري ترحب بالنازحين اليها من احرار الاقطار الشقيقة ، وبخاصة اهل القلم والفن ، والفرق التمثيلية والغنائية .. وكانت مصر في ذلك العصر الانتقالي – كما يقول المرحوم دكتور محمد مندور – (٢) : « قد وصلت الى نوع من الاستقلال الذاتي عن الحكم التركي – بجهله وتعصبه ، وظلمه وظلامه – واستطاعت بفضل هذا التحرر ان تفتح ابوابها للحضارة الانسانية التي آلت الى الغرب ، وتبدد بعض الظلام المخيم عليها ، وتفتحت اذهانها الى تلقي فن جديد كفن التمثيل ، حتى رأينا خديويها نفسه اسماعيل يبني في عاصمتها دارا للاوبرا . وكان ذلك بينما كان حكام الاتراك في البلاد العربية الاخرى لا يزالون يناقشون ما اذا كان

الاسلام يجيز فن التمثيل او يحرمه كما حدث في رواية هارون الرشيد التي الفها مارون النقاش وقيل انه تعرض فيها لنكبة الرشيد للبرامكة ، فغضب لذلك الحاكم التركي متظاهرا بالغيرة على سمعة الرشيد ... » (٣)

ونزلت فرقة سليم النقاش الى الاسكندرية في ديسمبر ١٨٧٦ ، مكونة من ١٢ ممثلا واربع ممثلات (٤) ، واخذت تمثل على مسرح «زيزينيا» من مساء ٢٣ ديسمبر ، وبدات برواية « ابو الحسن المغفل وهارون الرشيد » لمارون النقاش ، واعقبتها بروايات ترجمها سليم النقاش او اقتبسها ـ ومنها : «عائدة» و«مي وهوراس» و«متريدات» او الفها مثل « الظلوم » .. وعاونه اديب اسحق وراح يترجم ويؤلف للفرقة ، ومن ذلك مسرحية « اندروماك » لراسين التي نظم بها ابياتا شعرية جديدة ، و « شرلمان» المترجمة ، و « غرائب الاتفاق » المؤلفة ، وما زلنا نرى هذين الاثرين الاولين : « اندروماك وشرلمان » مطبوعين في كتاب « الدرر » الذي جمع فيه الكثير من اثار اديب اسحق بعد وفاته (٥) ، كما ترجم عن الفرنسية رواية سماها : « الباريسية الحسناء » بها بعض المنظومات

ولكن يبدو ان فرقة «النقاش واسحق » لم تلق بعدذلك ما املت من نجاح مادي ، فتركها الاديبان الى « يوسف الخياط » ، وارتحلا الى القاهرة فترة من الزمن ، واشتغلا بالصحافة ، ثم عادا بعدها الى نشاطهما الصحفي بالاسكندرية .. اما فرقة الخياط ، فظلت تمثل على مسرح زيزينيا حيث لاقت رواية « صنع الجميل » بعض النجاح ، ثم انتقلت الى القاهرة لتمثل عام ١٨٧٨ رواية «الظلوم» للنقاش بدار «الاوبرا» . وكانت هذه الدار مقصورة على الفرق الاجنبية ، واغضبت هذه الرواية الخديو اسماعيل اذ ظن بها تعريضا بكرامةالملوك، وغمزا الى مظالمه ، فطرد الفرقة من القاهرة ، ولكنها عادت الى الظهور بعد سنة لتمثل على مسرح زيزينيا .. (٦)

ومما يروى عن اديب اسحق ، في اشرافه على «فرقة اسحق والنقاش » ، انه لما سمع بالشيخ سلامه حجازي المطرب السكندري المعروف ، ومقدرته على تمثيل المعاني فيما يلقى من قصائد غنائية على « التخت » ، ذهبلاقناعه بالانضمام الى فرقته ليكون مطربها الاول ، وممثلا في الوقت نفسه ، ولكن سلامه حجازي لم يقبل الاشتغال بالتمثيل لما رآه من امتهان الناس يومذاك ، هذا الفن واهله ، وتلقيبهم المثل « بالمشخصاتي » .. غير ان يوسف الخياط استطاع بعد ذلك اقناع الشيخ سلامه بالوقوف على المسرح عام ١٨٨٤ لينشد القصائد ، فكان ذلك بدء نزوله الى ميدان التمثيل الغنائي الذي خلد ذكره ..

والمعروف ايضا ان اديب اسحق ، كان خلال اقامته بالقاهرة ، يحضر مجالس الافغاني ويلازمه وتعجب بتعاليمه ، وهناك تعرف بعدد من رجال الفكر والقلم وعلى راسهم الشيخ محمد عبده ، وعبدالله النديم ، وابراهيم المويلحي وغيرهم ..(٧) وكان الافغاني وقتذاك في زورته الثانية لمصر ، بعد مدة قضاها في تركيا ـ فكان يستقبل مريديه في بيته نهارا ، وفي « قهوة البوسطة» بالازبكية ليلا ، وتدور المناقشات في شتى المسائل السياسية والدينية والفلسفية .. وكان لشخصية الافغاني القوية ، وصراحته في الحديث عن الحرية ، وعن تفشي الطغيان والرجعية ، ودفاعه عن الحياة النيابية ، ودعوته الى وحدة شرقية تكفل لامم الشرق ، استقلالها وحريتها ، والى نهضة دينية روحية منزهة عن التعصبات والخرافات ، كان لمثل هذه الاراء التقدمية ، اثر بالغ في نفوس المستمعين اليه ، وكانوا يرددونها في حياته وبعد وفاته (في ٩ مارس ١٨٩٧ باستنبول) ، ووجد فيها اديب اسحق تجاوبا مع ما يطوف باحلامه ..

وكان من راي الافغاني ان تشيع هذه التعاليم بين الجماهير عن طريق الصحف ، فأوحى الى اديب اسحق وقد راى فيه من المواهب والحماسة ، ما يمكن توجيهه الى خير العالم العربي ، ان ينشىء جريدة : «مصر» لتكون لسان هذه الجماعة . واصدر اديب عددها الاول في ٣٠ يوليه ١٨٧٧ اسبوعية (قبل عزل الخديوي اسماعيل بنحو سنتين) ، ثم نقل الجريدة بعد بضعة اشهر الى الاسكندرية (١٨٧٧) وعاونه في تحريرها وادارتها زميله سليم النقاش.

وفي الاسكندرية اصدر اديب اسحق وسليم النقاش يوم ١٥ مايو ١٨٧٨ جريدة «التجارة» اليومية ، على ان تصدر جريدة «مصر» اسبوعية فنالتا رواجا حتى اغلقهما رياض باشا رئيس الوزراء حينذاك ..

وكان الافغاني يكتب في هاتين الصحيفتين (مصر ، والتجارة) حينا باسمه ، واحيانا بتوقيع «مظهر بن وضاح» كما كتب بهما الشيخ محمد عبده ، وابراهيم اللقاني (٨) ثم عبدالله النديم ... وغيرهم ..

وكان اسلوب الجريدتين (مصر والتجارة) صريحا عنيفا ، معبرا عن الام الشرق وآماله في ذلك العصر ، منتقدا تصرفات الخديو اسماعيل (وكان يحكم من ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ، وما جره اسرافه وبذخه من افلاس للخزينة ، وبؤس للفلاح ، وتدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد ، وفرضها مراقبين ، انجليزي وفرنسي ، على مالية الدولة ، فوزيرين مثلهما في مجلس الوزراء .. وكانت حكومته اثقلت كاهل الشعب بمختلف انواع الضرائب والقروض ، وافتن ناظر ماليته اسماعيل باشا المفتش في ارغام الفلاح الفقير على دفع تلك الضرائب في غير نظام ولا رحمة ..

ويقول دكتور عبداللطيف حمزه في كتابه : « الصحافة المصرية في مائة عام » : ـ (٩)

« كان اديب اسحق يصف « في جريدة مصر » ، الحريات التي تتمتع بها الدول الاجنبية ويحاول ان يشرح للشعب المصري حقوق الحاكم وحقوق الرعية ، كما تصدى في هذه الجريدة لشرح المعاني الجديدة على اذهان الشعب المصري ، وهي معاني الوطن والوطنية ، وتعرض لوصف المذاهب السياسية والاجتماعية في اكثر البلاد الاوروبية،ومن اهمها

الدولتان الالمانية والروسية ، وهذه كلها اشياء كانت غريبة على الذهن المصري كل الغرابة . فجاء شاب كاديب اسحق نهل من الثقافتين الشرقية والغربية ، وتولى بنفسه تثقيف الشعب من هذه الناحية ، وكتب مقالاته كلها باسلوب يذكر باساليب الادباء الكبار في تاريخ النثر العربي من امثال ابن العميد ، وبديع الزمان ، والقاضي الفاضل وغيرهم ..»

ويقـــول :

« ثم هذه جريدة «مصر» وهذه زميلتها «التجارة» وكان يحررها اديب اسحق ، وسليم النقاش ، اما اولاهما فتدافع دفاعا مجيدا عن كرامة المصريين الذين لا يعاملون معاملة الاجانب المقيمين معهم في بلادهم . واما الاخرى فتهاجم قانون المطبوعات ، وتعجب كيف ان هناك ادارتين: واحدة منهما للصحف الاجنبية ، والاخرى للصحف الوطنية ، ولكن البون شاسع بينهما في معاملة الصحف...وانظر الى اديب اسحق في جريدة «مصر» وهو يقول في الامتيازات الاجنبية : (لا ريب في ان امتياز بعض الناس عن بعض في وطن واحد ، يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حسا ومعنى ... وقد حان لهذه البلاد ان تنتعش من عثرتها ، وتفلت من ربقتها ...) الى اخر هذه العبارات التي استفز بها الشعب المصري ضد هذه الامتيازات الاجنبية ، وما اشبه هذه العبارات بما كان يردده السيد جمال الدين الافغاني في هذا المعنى ...»

ومن ذلك قول اديب اسحق بجريدة مصر في ٢٩ يناير ١٨٨٢ :

« اريد ان يكون المصري في مقام الانسان ، مستقلا بوجوده ، متمتعا باستقلاله ، فائزا بحقوقه ، ناهضا بواجباته ، يستغل زرعه ، ويستدر ضرعـــه ... »

وقوله :

« يا أهل مصر اني محدثكم حديثا غريبا : اذا كان امراؤكم خياركم، واغنياؤكم اسخياءكم ، واموركم شورى بينكم ، فظهر الارض خير لكم من بطنها ، واذا كان امراؤكم شراركم ، واغنياؤكم بخلاءكم ، واموركم الى نسائكم ، فبطن الارض خير لكم من ظهرها ! ... »

وكان عبدالله النديم خطيب الثورة العرابية ، والكاتب الصحفي (١٨٤٥ ــ ١٨٨٦) قد عاد الى مسقط راسه الاسكندرية في اوائـــل ١٨٧٩ بعد طواف طويل في المدن والقرى ، مكافحا في سبيل العيش ، مختلطا بجميـــع طبقات الشعب ، ومتتلمذا على الافغاني بالقاهرة .. ولما عاد الى الاسكندرية في ذلك العام ، وجد جوا جديدا في مجالسها وصحفها ، مخالفا لما عهده من قبل .. وكانت المناقشات تدور حول ما لحق الاحوال المالية للبلاد مـــن تدهور ، وما يستتبع ذلك من مطامع الدول الاوروبية في الشرق ، وما يجب على العرب من اليقظة والانتقاض ــ كانما كانت ترهص الثورة الوشيكة النشوب بعد عامين.

وطلب اديب اسحق من صاحبه عبدالله النديم ،التحرير بجريدتي «مصر» و «التجارة» ، وكتب النديم فيهما المقالات الاجتماعية والسياسية في اسلوب مرسل متدفق ، بعيد عن طريقته البديعية السابقة ، ونالت مقالاته اعجاب القراء كما بدأت شهرته تذيع في ميدان الصحافة الى جانـــب شهرته في الخطابة .. ويقول «النديم» في مذكراته عن هذه المشاركة في تحرير الجريدتين : (١٠) .

«وممن اتوا الى جمال الدين من الافاق ، الكاتب المنشيء اديب افندي اسحق . فرآه فقير الحال ، لا يملك شيئا من المال. فساعده بنفســه وماله ، وفتح له جريدة «مصر» لسان حاله . واجتمع اليه ادباء مصر ، وكتبة مصر ، فزفوا اليها من الاداب ، ما تنورت به الالباب. وعندمــا انتقلت الى الاسكندرية ، اجتمع «اديب» بي في جلسة ادبية ، وطلب مني ان يكون لي عبارة ، في «مصر» و«التجارة» . فالتزمت تحريـــر اغلبهما ، لكون مشربي من مشربهما ...»

وكانت بالاسكندرية جمعية سرية ، تهدف الى القضاء على حكم اسماعيل ، وتدعو الى الاصلاح الشامل ، وتسمى « جمعية مصر الفتاة » على غرار «تركيا الفتاة » التـــي انشأها مدحت باشا بتركيا لتناوىء دكتاتورية السلطان عبدالعزيز ، وتطالب بالدستور (١١) .. وكان من اعضاء «مصر الفتاة» : جمال الدين الافغاني ، واديب اسحق ، وسليم النقاش، وعبدالله النديم ، ونقولا توما ..وغيرهم، فرأى النديم ان تستبدل هذه الجمعية بأخرى تعمل فـــي وضح النهار ، وتنشيء المدارس لابنـــاء الشعب وبناته ، واطلق عليها اسم : « الجمعية الخيريـــة الاسلامية » ، واخذت جريدة « مصر » السكندرية تنشر انباء نشاطها وحفلاتها ، وتذيع خطب النديم واقواله ، ومن ذلك خطبته في حفل افتتاح اولى مدارس الجمعية في ٨ يونيه ١٨٧٩ .. كما عاون اديب اسحق ، زميله النديم في احيـــاء الحفلات التمثيلية التي اقامتها مدرسة الجمعية ..

وانقضى حكم الخديو اسماعيل بعزله يوم ٢٦ يونيه ١٨٧٩ ورحيله الى ايطاليا .. وتولى مكانه ابنه الخديو توفيق في ٨ من اغسطس ذلك العام .. ولم يمض شهر على توليته حتى امر بالقبض على السيد جمال الدين الافغاني وهو عائد الى منزله ، وترحيله الى السويس ، فذهب الى الهند ثم الى باريس ، وتوفي بتركيا في ٩ مارس ١٨٩٧ . وكان توفيق يعارض اراء الافغاني في الشـــورى والدستور والمجالس النيابيـــة ..

---

(١) انظر : فيليب طرازي ــ « تاريخ الصحافة العربية » جـ ٢ ص ١٠٥ . (٢) محمد مندور : « المســـرح » ــ ١٩٥٩ ص ٢٩ . (٣) فؤاد رشيد : « تاريخ المسرح العربي » ــ ١٩٦٠ ص ١١ و ١٨ . (٤) جرجي زيدان : «مشاهير الشرق » جـ ٢ ص ٧٥ .(٥) كتاب «الدرر» مختارات لاديب اسحق ــ جمعها جرجس النحاس ــ الاسكندرية ١٨٨٦ ط ١ . (٦) د . محمد يوسف نجم : «المسرح العربي من عام ١٨٤٧ ــ ١٩٦٢ » . (٧) كان بين مريدي السيد جمال الدين الافغاني، والمترددين على ندواته بالقاهرة : الشيخ محمد عبده ، واديب اسحق، وسليم النقاش ، وعبدالله النديم ، وسامي البارودي ، وابراهيـــم المويلحي ، وسعد زغلول ، وقاسم امين ، وابراهيم اللقاني ، وعلـــي مظهر ، وابو الوفا القوني...وغيرهم... (٨) كان الكاتب الصحفي ابراهيم اللقاني يحرر جريدة «مرآة الشرق» لصاحبها سليم عنحوري الدمشقي ، وكانت تصدر بالقاهرة مرتين في الاسبـــوع (١٨٧٩) . (٩) ص ٤١ و٥٠ ــ (المكتبة الثقافية بالقاهرة) ١٩٦٢ ــ وابراهيـــم عبده : «تطور الصحافة المصرية» . (١٠) كتاب «تاريخ مصر السياسي ومذكرات عبدالله النديم» ١٩٥٦ ص ٥٣ ــ ٥٤ . (١١) كتاب «عبدالله النديم» للدكتور علي الحديدي ١٩٦٢ ــ ص ٨١ . (١٢) طرازي : جـ ٢ ص ٢٥٦ ــ ومجلة «النحلة» للويس صابونجي (لندن) عدد ١٠ سنة ٣ .

العين السخية

عينها الحلوة كم كانت سخيه
حينما عانقتها
ذات عشيـــــه
اغمضتها
بـــدلال انثوي
قدمتهـــا
بسخـاء شاعـري
لفم يشتـاق نهلـه
قالت الاهداب
في همس كهمـس الظـل ،
خذهـــا
مـن جناح مخملي الريش
وقبلـــــه
ومسحـت الجفـن

فـي ذهـل وهمس
فافاقت روعة السحر الذي قد جنحه
وهفـا الوجـد
ورفت مروحه !
خبئـي الاشـواق يا فينوس
يا اطهر طفلـه
خبئـي لـي
للقـد الزاهـي الجميل
قبـل الثغـر الشهيّـه
والنعيـم الشاعريـا
وليكـن ثغـرك لهابا سخيا
مثلمـا كانـت سخيـه
عينـك الحلوة في تلك العشيه !

فؤاد الخشن

وعندما استقال شريف رئيس الوزارة ، وحـل مكانه رياض باشا ، وبدأ يشتط في احكامه ، اصطدم به اديب اسحق وقاومه . وحاول اغراءه بالمال والمنصب ، فرفض .. وعندئذ اغلق رياض جريدتي مصر والتجارة ، وبدأ يدبر التهم لاديب تمهيدا للقبض عليه . ولكن اديب اسحق استطاع الافلات ، وهاجر الى باريس ، وكانت يومـذاك ملجأ للاحرار ، واليها قصد الصحفي يعقوب صنوع عام ١٨٧٨ عندما حمل على اسماعيل وبطانته في جريدتـــه « ابو نظاره زرقا » ، كما لجأ اليها الافغاني ثم محمد عبده فيمـا بعـد ..

ونزل اديب اسحق بباريس في خريف ١٨٧٩ ، واقام بها نحو تسعة اشهر ، وفوت على حكومة توفيق القبض عليه ، كما فعلت مع الافغاني قبله بنحو شهرين ، او كما فعلته بعده مع المتهمين باثارة الثورة العرابية من سجـن ونفي وتشريد ، وكان بينهم الشيخ محمد عبده الـذي حكمت عليه بالنفي في ديسمبر ١٨٨٢ فلجأ الى بيـروت حتى استدعاه الافغاني ليلحق به في باريس وليصدرا معا صحيفة « العروة الوثقى » ..

وفي باريس اصدر اديب اسحق جريدته : « مصـر القاهرة » التي يصفها فيليب طرازي في كتابه : « تاريخ الصحافة العربية » في قوله : (١٢)

« جريدة (مصر القاهرة) هو عنوان مجلة سياسية شعارها : حرية ، مساواة ، اخاء .ظهرت بتاريخ ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧٩ في ١٦ صفحة ، لمنشئها اديب اسحق ، وقد اسسها على انقاض جريدة «مصر» التي كانت تصدر في وادي النيل ، لنشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية ..وكتب فيها فصولا متناهية في البلاغة ، وحاوية من اثـار هذا المزاج ما دفعه الى نزق الشباب . وكثيرا ما ندد بسياسة رياض باشا رئيس الوزارة المصرية ، فحمل عليه ، وعلى سياسة الـدول الاوروبية في وادي النيل ، حملات شديدة ، ثم حول المجلة الى جريدة اسبوعية . ولكنها قبل بلوغ الحول الاول من العمر ، اصيب اديب بعلة الصدر ، فزايل باريس..وكانت هذه الصحيفة تصدر مطبوعة على الحجر ، ومكتوبة بخط يد منشئها ، او بخط عبدالله مراش الحلبي المشهوربالادب وجودة الكتابة..وعاونهفي اخراجها شقيقه عوني اسحق.»

وصدَّر اديب اسحق جريدته : « مصر القاهرة » بهذه الكلمـة الجامعـة :

« الحمد لله وحده ، هذه صحيفة (مصر) ما تغيرت الحقيقة بتغيـر الرسم ، ولا تغيرت الصحيفة بتغير الاسم ، بل هي (مصر) خادمة مصر طواها الاستبداد فماتت شهيدة ، ثم احيتها الحرية فعاشت سعيدة . ترسل الى المريدين والاولياء ونبهاء القراء ، منهية اليهم انه قد اتانى الله نعمة الحرية.ومن اوتي هذه النعمة فقد اوتي خيرا كثيرا.ولسوف ترون في رواية الصادق ، في رأي الآمل ، في عزم الآيس .. حاول رياض باشا المتصدر في بلاد مصر اطفاء نوري ، وابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الظالمون . اماتني بدعوى الحرص على الخواطر ان اثيرها للفتنة . بل خاف ان اكشف الحجاب عن حقيقة احواله . فزعم انـي ناصبته الشر ـ نفرة منه وتشيعا لسواه . وما انا في شيء من ذلك . فاني اعز نفسا ، وانبل قصدا من ان تستميلني الاشخاص. وانمـا اميل مع المقاصد ، فما كان منها ملائما للمشرب الذي احسه حقا :

فذلك من دون المشارب مشربي   وذلك ما بين المذاهب مذهبـي

وأما ما كان منها مغايرا للمبدأ الذي اراه عدلا :

رميت به من حالق رمى حانق   متى يرم لم يخطىء وان يبغ يدأب

« على اني لا اقصد الانتقام ، وانما اروم مقاومة الباطل ، ونصرة الحق ، والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله ، مسلكي ان اكشف حقائق الامور ملتزما جانب التصريح ، متجافيا عن التعريض والتلميح . وان اجلو مبادىء الحرية ، واراء ذوي النقد ، وان ابين ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ، ومقاصد اهل الحل والعقد .

وان اوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا – اولي الامر – ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما – امناء الامة – ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا – ولاة النظام – وان اعين واجبات الانسان الشرقي بالنسبة الى نفسه ، والى قومه ، والى بلاده ، وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق .ومقصدي : ان اثير بقية الحمية الشرقية ، واهيج فضالة الدم العربي ، وارفع الغشاوة عن اعين الساذجين واحيي الغيرة في قلوب العارفين ، ليعلم قومي ان لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ، ليتخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل مدلس يشتري بحقوقهم ثمنا قليلا ، ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلا ،وليستصغروا الانفس والنفائس في جنب حقوقهم ، وليستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون ابدانهم واموالهم واوطانهم وآلهم من الاجانب بما يطمعون فيه من رفعة المقام . فمن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون اهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد اولئك الشهداء فهو سعيد !... »

وفي باريس تعرف اديب اسحق على عدد من الادباء الفرنسيين الاحرار ومنهم الشاعر الكبير فكتور هوجو الذي كان يقدر مواهب اديب من مناقشاته معه في السياسة والادب ، ويروى ان هوجو قال عنه مرة لمن كان معه عقب انصرافه من مجلسه : « هذا نابغة الشرق » !

وفي باريس حضر اديب اسحق بعض جلسات النواب، وتردد على المكتبة الاهلية ، واطلع فيها على مخطوطات عربية قديمة ، والف كتابا سماه : « تراجم مصر في هذا العصر » ضاع مع كثير من آثاره .. ثم كان يتراسل من باريس مع جمال الدين الافغاني ..

وعندما ظهرت بوادر الثورة المنتظرة (الثورة العرابية ١٨٨١ – ١٨٨٢) التي مهدت لها مثل تلك المقالات والمناقشات ، عاد اديب اسحق الى مصر ليكون وسط المعركة .. واعاد اصدار صحيفته السابقة : «مصر» .. وراح يتنقل بين الاسكندرية والقاهرة .. ثم اشترك عام ١٨٨٠ مع سليم النقاش في اصدار جريدة : « العصر الجديد » التي ظهر عددها الاول في ٨ يناير ١٨٨٠ ، ثم جريدة «المحروسة» في العام نفسه ..

فكانت مقالاته الكثيرة قد تفرقت فيما بين صحف : مصر ،والتجارة ، والقاهرة ، والتقدم ، والمحروسة ، والعصر الجديد ، ومصر الفتاة ، واما خطبه واحاديثه في منتديات الاسكندرية والقاهرة وبيروت وباريس فلم يبق منها شيء .. واما رسائله الخاصة فلم ينشر منها غير النذر اليسير ..

ولكن الثابت ان هذا الكاتب ، الذي افنى حياته القصيرة في الدعوة الى مبادئه ، كان صاحب رسالة في الاصلاح والتجديد والنهضة وتحرير الفكر ، وكان مخلصا لرسالته، يختص الشرق بعامة ، والشعوب العربية بخاصة ، بجل اهتمامه .. من ذلك قوله مخاطبا زعماء العرب في عصره من اجل الوحدة العربية :

« .. ما ضر زعماء هذه الامة ، لو سارت بينهم الرسائل بتعيين الوسائل ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون باصوات متفقة المقاصد كانها فم واحد ... فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان . وكلنا وان تعدد الافراد انسان .. أيحسبون ان ذلك الصوت لا يكون له من صدى ،ام يخافون ان يذهب ذلك الاجتهاد سدى ، ام لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع منزه عن المقاصد الدينية ، منحصر في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلف من اكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطرابا ، ويستميل الدول جذبا وارهابا ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا يحزنون !»

وكان يدعو الى حياة نيابية ، والى اقامة مجلس للامة يمثل الشعب .. فلما تكون هذا المجلس ، بالرغم من معارضة الخديو توفيق ، كتب اديب اسحق يقول فيه :

« .. وكيف لا ؟ وهو حاجة النفس ، وامنية القلب ، منذ توجه الخاطر الى السياسة الوطنية ، وانصرم العزم الى احياء الهمم ، وانعقدت النية الى حفظ الحقوق ، واتخذت الوجهة في القيام بالواجبات ، وهو النشاة التي كست الوطن رداء الفتوة قشيبا ، وهو البغية التي غرست للامة غصن الامل رطيبا ، وهو ما رجوناه زمانا ، ودافعنا الزمن فيه وتمنيناه اعواما ، وغالبنا الحدثان عليه ، فيا حسنه من يوم رد فائت البهاء ، واحيا مائت الرجاء ..!»

وكان اديب اسحق في مقالاته الصحفية والادبية ، يتوخى دائما الاسلوب العربي السهل الرصين ، الخالي من اللكنة التي شابت العربية الفصحى في العهود التركية، حين دخل في اللغة الفاظ تركية وتراكيب غير عربية ..

وكان ينظم الشعر احيانا – ومن شعره :

قتل امرىء في غابة — جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن — مسالة فيها نظر !
والحق للقوة لا — يعطاه الا من ظفر
ذي حالة الدنيا فكن — من شرها على حذر !

وجمع بعض آثاره المنشورة والمخطوطة ، مع ترجمة موجزة لحياته ، ومراثي الشعراء فيه في كتاب سماه جامعه : « الدرر » في نحو ستمائة صفحة تكفل بجمعه بعد وفاته زميله في تحرير صحفه المرحوم جرجس النحاس ، وطبعه بالاسكندرية عام ١٨٨٦ كما سلف ، ثم اعيد طبعه بعد بضع سنوات .. وللباحث في آثار اديب اسحق ان يرجع الى تلك الصحف التي اصدرها او كتب فيها ، على ان يقرنها باحداث العصر الذي عاش فيه والذي يطوي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ..

وكان ذلك الكفاح الشاق ، والجهاد المرير قد هدا قواه، واصيب بمرض الصدر .. وفي اعقاب الثورة العرابية ، أودع في السجن بضع ساعات ، ثم بدل السجن بالنفي.. فارتحل الى بيروت ، واقام بها فترة تولى فيها تحرير جريدة « التقدم » للمرة الثالثة .. ولكن العلة اشتدت عليه ، فجاء الى مصر للاستشفاء ، واقام بالقاهرة اياما ، ثم عاد الى الاسكندرية وقضى في «الرمل» بضعة ايام .. ولم يرج الاطباء شفاءه واشاروا عليه بالانتقال الى جبال لبنان ، ثم لم يمض غير شهر واحد ، حتى وافته منيته بقرية «الحدث» في ١٢ يونيه ١٨٨٥ شابا في التاسعة والعشرين .

رمل الاسكندرية

نقولا يوسف



يوسف عبد المسيح ثروة

مناظر من وادي البؤس

بقلم يوسف عبد المسيح ثروة

* * *

جان انوي كاتب فرنسي مسرحي ولد في بوردو سنة ١٩١٠ وسط عائلة من سواد الناس ، فأبوه كان خياطا وكانت امه عازفة كمان محترفة . وهذه البيئة المتواضعة التي راى بين احضانها النور جعلته يتعرف – منذ نعومة اظافره – على معاني الفاقة والحرمان ، في مسارب باريس المظلمة ، بعد ان انتقل اليها والده طلبا لشيء من نعمة العيش التي افتقدها في بوردو ، وجان لما يزل في الثامنة من عمره الغض . ومع انه اتم دراسته في مدرسة كولبير الابتدائية ، ومن ثم اكمل دراسته الثانوية في كوليج شابتال ، فانه لم يستطع – اثر التحاقه بكلية الحقوق – الا ان يقضي فيها سنة ونصف فقط ، ذلك ان قلة ذات اليد اضطرته اضطرارا لا رحمة فيه الى العمل في احدى مؤسسات الاعلان ، لكي يقيم بأود نفسه ، ولكي لا يكون عالة ثقيلة على من يستطيع اعالته ، ومع ذلك ، فان قطع ما وصل من دراسته الجامعية لم يفت في عضده ، بل هو استغل دار الاعلان التي انتمى اليها ، في تدريب نفسه على التركيز على الجمل القصيرة ، وهذا ما أفاد منه اكبر الفائدة في تقوية حواره ، وهو الاساس الرئيسي للعمل المسرحي الذي اجتذبه منذ بواكير حياته ، ثم واتته الفرصة لان يتصل بالمخرج المعروف جوفيه ، بعد ان كان قد شاهده على المسرح يمثل « سيجفريد » لجان جيرودو ، الكاتب الذي كان له فضلا عن برناردشو وبيرانديللو اكبر الاثر في نفسه . وهكذا تضافرت هذه المصادر الثرة على رفده بنبع لا ينضب من الحيوية المسرحية ، ذلك النبع الذي اصبح – بمرور الزمن – معينا يتدفق وعينا تتفجر وينبوعا يفيض فينحدر من كل ذلك سيل جارف من المسرحيات النابضة بالحياة العنيفة الصاخبة ، بالمواقف التي تهز القلوب والاذهان والاعصاب معا ، المفعمة بالروح الانسانية الحلوة الحزينة ، بالانفاس المتقطعة المبهورة ، بالنفوس الضائعة المهجورة ، بالشخوص التي ترنو الى العدل والحق والبراءة والصدق والصفاء والنقاء ، على حين يهوي بها الفقر الكافر الجبان الاثيم الى الهاوية ذات القرار السحيق ، حيث سقر المذلة والعار والرذيلة والختل والغش والنفاق. وهل ارض الواقع الابله المعتوه غير هذا القرار السحيق ، غير سقر المذلة هذه؟ وكيف لا تكون الحال كذلك ، والواقع هو نتيجة طبيعية للوجود الاجتماعي ، الذي لا يعترف لا بالنظام ولا بالقانون ولا باي سنة من السنن او شريعة من الشرائع . ففي وادي البؤس لا تنمو الا الطفيليات والاعشاب الضارة ، ولا تعيش الا الحيوانات الوحشية ، كالضباع والنمور والذئاب، ولا تطير في اجوائه الا الكواسر من الطير كالصقور والنسور والبزاة ، اما ما عدا ذلك مما يهب ويدب ، فحيوانات اليفة تساق الى المسالخ اذا كان لحمها مما يؤكل ، وتساق الى العمل الشاق المرعب اذا كان لحمها مما لا يؤكل ، على حين يستفاد من كدها المسروق ، الذي يمكن ان يتحول في بوتقة الصناعة الحديثة ، الى اكداس مكدسة من الذهب والبلاتين .

ومن هنا تتضح المفارقة في شخوص انوى ، انها قوى خيرة نبيلة منطلقة ، تريد ان تحلق عاليا في الاجواء النظيفة ، لكن ضعفها الكامن فيها يؤثر في قوة اندفاعها ، فيشلها عن الحركة ، ويجبرها على الهبوط هبوطا مأساويا فظيعا . وليس هذا الضعف غير الفقر الذي يحطم النفوس ويقتلع بذور الخير منها ، ويدس انوف اصحابها في الرغام ، ويحمل الناس ، كل الناس المبتلين بطاعونه الى النفاق والكذب والاحتيال ، والضعة والمسكنة . انه يدفع الى الرذيلة ، فيجعل منها مصيدة للرجال والنساء على حد سواء . فيضيع الشرف بما فيه من نقاء وصفاء ، وتنحدر الشيم والمكارم الى حضيض التزلف واغتنام المغانم . وتمتد يد الفساد الى كل مرفق من مرافق الحياة، لتستشري الحطة والانانية والتذلل في النفوس حتى تأتي على كل اثر فيها مما تبقى من معالم الخير والمروءة والشهامة والكرم .

وخير من يمثل قوى النبل والانطلاق والصراحة هي تيريز بطلة «المتوحشة» فهي عنزة صغيرة تنظر في اعماق عيني خطيبها فلوران ، وهي حين تهتم بالسعادة تهتم بها على اعتبارها حياة داخلية نظيفة لا شركا لصيد الحيوانات الادمية الغنية ، لهذا لم تستطع ان تقفز مما هي فيه من بؤس وشقاء وتعاسة الى ما كان يمكن ان تكون فيه من رغد وبحبوحة وسعادة . ذلك ان هذه العنزة الصغيرة مثلولة

القدمين بسبب قيود الفقر واصفاده . ومع ان الفقر لم يستطع ان يجردها من كبريائها ، الا ان هذه الكبرياء ظلت متقوقعة في دخيلة نفسها . اما ابوها تارد فرجل تاجر ولكن بغير راسمال سواها ، ومن هنا فهو يعرضها بصفتها بضاعة يمكن ان تشرى وتباع ، وكذلك امها ، فهي — في جشعها وخستها وشراستها — تدفع بنتها دفعا الى الزواج بالمال ، لان المال هو اصل السعادة ومنبتها الوحيد ومن كان بغير مال ، لا بد ان يكون شقيا بائسا ضائعا في هذه الحياة الدكناء .

تيريز تريد ان تتغاضى مرة واحدة عن المال على الاقل ، غير ان والدها لا يرى معنى لذلك ، اذ ان تيريز نفسها تاجرة شأنها شأن والديها وشأن الناس اجمعين .

والام ، بطبيعة الحال ، تلح على تيريز الا تترك هذه الفرصة الذهبية تمر من غير استغلالها الى ابعد ما يكون الاستغلال ، انها تطالبها بالا تتركه يفلت منها قبل ان يضمن لها مستقبلها ، لكن تيريز لا تريد ان يتصورها الة يمكن ان تزودهم بالمال متى ارادوا ذلك ، وهم يريدون ذلك في كل وقت وفي كل زمان .

وفي غضون هذا الصراع المتأزم بين كبرياء تيريز وسفالة الوالدين يظهر عشيق الام جوستا ، الذي يمثل واقع هذه الحثالة من البشر ، الحثالة التي تزحف الى المال على بطونها سحفا ، والتي تبيع كل القيم الانسانية لقاء دراهم معدودات ، والامر البارز — في شخصية جوستا — هو الصراحة العارية ، هو الواقعية المكشوفة ، هو الاعتراف المنبثق من اعماق النفس الانسانية ، ومن هذه الصراحة تتدفق الكلمات الجهنمية بوحشية غريبة . فحين يلتقي جوستا بواقع فلوران ، ويريد ان يعرفه بنفسه تعريفا صحيحا يقول : «لست شيئا .. لست اي شيء .. لست الا رجلا مسكينا رأيتها تترعرع حتى تصبح ما هي عليه الان ولا اريد ان تصبح مومسا .. (١) » ودفعا لكل التباس يوجه خطابه الى تيريز قائلا : «كنت اتصورك طاهرة... ولكنك كنت تتشممين رائحة المال بانفك الصغير القذر ..»

ولما تصر تيريز على انها تحب فلوران حبا صادرا من اعماق القلب ، يلتفت اليها جوستا ساخرا ويقول: «تحبينه بالتأكيد كلنا متأكدون من انك تحبينه... انه اولا غني... كيف يمكن الا تحبينه .» واعتقادا منه انها ما اندفعت الى محبته والتشبث به الا بسبب ماله نراه ينتفض في وجه فلوران كالمجنون ويحاول بكل ما اوتي من قوة ان يحول بينه وبينها حتى كاد العنف ان يتدخل في الامر لولا تمكن الوالدين من فض النزاع وابعاد جوستا عن الميدان. وهنا تعترف تيريز بحبه لها وبساطته وعنفه وبتصوره انهم يدفعونها اليه لا حبا به... بل استسلاما منها من اجل ماله ، كما تعترف بانه عشيق امها من امد بعيد . وتيريز لا تكتفي بهذا الاعتراف بل هي تحدت خطيبها برايها في امها قائلة : «انني اخفيها . اخفيها بسرعة حتى لا تراها

... انها قبيحة... اليس كذلك ؟ كم تكون حقيرة عندما تنشد هذه الاناشيد المبتذلة .»

لكن الوالدين يصران على ابتزاز مال فلوران ، بهذه الحجة او تلك ، ولا يعيران بنتهما وكبرياءها بأي التفات انهما يضعان الخطة بعد الخطة ، لكي يحصلا على المال ، بأي وسيلة كانت ، ولذا تبادرهما تيريز قائلة : «لا تطلبا هذا المال ايضا .. لقد اسأتما الي بما فيه الكفاية ... اراكما تتعجبان .. لانه رضي ان يتزوجني ... انني جميلة وابلغ من العمر عشرين ربيعا .. وانا احبه .. وكل هذا لا يقل عن مجده وماله .» الا ان هذا اللهب من الكبرياء لا يفيد في شيء في احراق جشع الوالدين ، لذا نرى تيريز تنتفض الما وثورة وجموحا ، اذ ترى كرامتها تداس بالنعال ، وترى نفسها طعما لصيد دسم ، فترمي بالاوراق النقدية التي قدمها فلوران على قدميه ، بعد ان يكون الخجل قد شلها وجعلها لعبة جميلة يلهو بها فلوران . وعلى الرغم مما قاله فلوران تهدئة لروعها ومما فعله لتوكيد ذلك ، ووعده بان يبعد المال عن سعادتهما المقبلة ، حتى لا يتعرفا عليه ابدا ، نراها تترك فلوران يقبلها وتنظر شزرا الى والديها (وهما يرتجفان من شدة الجشع) وتقول والحنق يكاد يخنقها : «انظر اليهما .. ان هذه الاوراق تعذبهما . كم كنت لطيفا وانت تلقي بهذه النقود يا فلوران ، ولحظة سكون ثم تصرخ فجأة : انني حمقاء لانني بدأت هذه المهزلة يؤلمني ان ارى هذا المال على الارض» . ذلك انها كثيرا ما شككت اصابعها بابرتها ! وكثيرا ما بقيت منحنية على اقمشة حتى آلمها جنبها لكي تحصل على القليل من ذلك المال : لقد ارادت ان تتظاهر بالكبرياء لكنها كانت تكذب وهذا ما حملها على ان ترتمي الى ركبتها وتقول والياس يقطع اوتار قلبها تقطيعا : «على ركبتي .. على ركبتي .. يجب ان التقطها .. وانا راكعة على ركبتي حتى لا اكذب ... انني من هذه الفصيلة .» فما يكون الصدق مع النفس ان لم يكن هذا؟ وما تكون الصراحة ان لم تكن هذه؟ هذه صرخة الجنون تتعالى الى السماء ، هذه لسعة الافعى التي لا علاج لها. انها حقيقة الفصيلة الادمية المكتوبة بمداد الذلة في سفر الفقر الذي يجمع بين دفتيه افانين الشرور وافاعيل الخزي والشنار. انها الواقع كما يبدو ، في عريه وبشاعته وتفاهته ، في هوله ومأساته ، في ندائه الداوي لكي ينتشر الصدق ، في موطن الكذب والنفاق والاحتيال ، في جرحه الدامي ، الفاغر الذي ينز تسمما وقيحا ، في وجوده العفن الآسن بصفته وجودا مستمرا .

ومع كل هذا الذي حدث فان فلوران يأبى ان يترك خطيبته ، ويأبى الاب ان يترك سعادته الى حد انه لا يجرؤ ان يعترف لنفسه بهذه السعادة ، انه يعرف مبلغ حقارة الام ويعترف بجشعه ، الا انه لا يرى في كبرياء ابنته الا صفة وثيقة الصلة بكبرياء اسرته. وحين تبلغه تيريز بثورتها على فلوران ، يصاب الاب بالذهول والتبلد ، فهو

لا يفهم كيف تثور فتاة في مثل مستواها على شاب غني في مثل مستوى فلوران ، ولذا تظطر تيريز الى ان تشرح له معنى ثورتها عليه وعلى بيئته فهو ــ في سعادته وغناه، في نبله وشهامته ، في اعتزازه بكرامته ، في علو مقامه الاجتماعي في واد وهي في واد اخر . وهذا يتجلى في بيته الذي يبدو فيه الجو صافيا رائعا لا لشيء الا لكي تنفر منه ، فتهرول من هنا الى هنا وتجري عبر قاعة الاستقبال فريدة وحيدة وكل مقعد فيها يؤنبها على رغبتها في البقاء ، وكذا المكتب الصغير الذي كان يكتب عليه واجباته المدرسية ، يذكرها ــ على براءته ــ بانه متآمر معه ، لانه يجعلها تحس بايام تشردها في الشوارع ، وهي طفلة ربانة الاهاب.

لكن تيريز كلما امعنت في النفور من السعادة ، وجدت نفسها في دائرة مغلقة منها ، تضيق بصورة مضطردة ، بتضايقها وتبرمها وتمردها ، حتى انها تنفر في وجه هارتمان صديق فلوران وتقول وكلها ثورة وجموح : «انني اشمئز منكم جميعا . انتم وسعادتكم . كانما لا يوجد على الارض شيء الا السعادة . حسنا ، انني اهرب من هذه السعادة . انني لا اريد ان تتملكني السعادة وفيّ عرق ينبض بالحياة . انني اريد الاستمرار في هذا الشعور بالعذاب ، في الصياح . انه امر عجيب اليس كذلك؟» هذا امر عجيب، وهو كذلك بالقياس الى هارتمان وفلوران ايضا ، لكنه ليس كذلك بالقياس الى الذئبة الجريحة ، الى قلبها المتفتت بحجارة الرجم ، وصخور الفقر الصلدة .

ويستمر عواء الذئبة عاليا ، ويستمر فلوران متعلقا بها حتى تضطر الى الاعتراف بالقاء كتبه على الارض وبصقها على صورة امه واصطحاب ابيها وتركها له كي يعطيه النقود، ودفعها لابيها كي يشرب ويغني، ومقتها للاغنياء جميعا ، وكل ذلك صدر منها بقصد وسبق اصرار املا منها في استدراجه ليهتدي الى السبب الذي دفعها الى مثل تلك التصرفات .

ولما يعجز فلوران عن تلمس السبب ، ويتيه في مفازة لا اول لها ولا اخر ، تنفجر تيريز ملتاعة وتقول والرجفة العارمة تهز كيانها بل تعصف به عصفا : «نعم . . اني ارتجف. ارتجف لاني الوحيدة التي لا تعرف الابتسام في هذا البيت . لانني القذرة الوحيدة هنا . . وانا الفقيرة الوحيدة . . . الوحيدة التي تخجل من نفسها . . » وهنا يحاول فلوران ان يخفف عن لوعتها بقوله : «هل تتصورين انني سأسمح لاي نوع من الالم ان يبقى في نفسك . . . الا يبدو عليّ انني اقوى من هموم الدنيا جميعا .» وبعد ان يشرح لها اهمية كتبه (القذرة) وكيف انها علمته كيف ينتظرها ليحبها، يناجي صورة امه ويقول والحزن العميق يجتذب مشاعره جميعا : «لقد كانت تتألم يا اماه . . ولكنك لم تقولي لها شيئا . انت التي كنت ماهرة في التخفيف من آلام الاخرين . . . الم تجدي ما تخففين به الامها ؟ حقا يا اماه .» وازاء هذه الام الحنون الرؤوم تضع تيريز امها وتقول متحدثة اليه والعبرات تخنقها : « امي امراة قاسية . . جامدة العواطف . كنت اخجل منها . . . وكانت تضربني » وبعد ان يعجز فلوران من التهوين عما بها من آلام مبرحة ، وهموم كاسحة ، ويخيب في اطفاء نيران لواعجها ، يجد نفسه ملزما الى ان يستمع اليها وهي تقول: « انني اشعر الان بألم هائل . يجب ان تسمح لي بالرحيل . . لن تستطيع ان تفهم . . ان شيئا يغلي في اعماقي . . . انه يتضخم . . وهو على وشك الانفجار . »

ثم ما يلبث الاب الا ان يتدخل ليكون طرفا في الصراع المأساوي الجارف ، الامر الذي يحمل تيريز على القول : «ابي . . ابي العزيز . . آه . . كم انا سعيدة . . ان تكون بهذه القذارة . . بهذا المظهر المضحك . . وبهذا الانحطاط . » وتستطرد « لا انسى الحقيقة انني ابنتك . ابنة هذا السيد القصير ذي الاظافر السود الذي يتساقط القشر على ملابسه . . ابنة هذا السيد الذي يحسن الكلام وان كان قد حاول ان يبيعني في كل مكان منذ ادركت السن التي يمكن ان يعجب فيها الناس بي . . »

هذه الكلمات الكبريتية التي تتطاير من فوهة واحدة من بنات وادي البؤس ، هذه الالام المتفجرة غضبا وكمدا، هذه النيران المحرقة العاصفة التي تئن انينا وحشيا ، هذه البراكين الثائرة حمما لا تستطيع جميعا ، بما اوتيت من جبروت التدمير والحرق والابادة ، ان تنال من هدوء فلوران ، فلوران الفني الجاهل ، الذي لا يعرف معنى الفقر ، ولهذا تقول له تيريز : «اني لست في متناول يدك . . . انا ذا قد دخلت مملكة لم تدخلها ابدا . . حيث لا تستطيع ان تتبعني لكي تلحق بي . انك لا تعرف معنى شعور الانسان بالالم . . ومعنى الانغماس في الاوحال . . انك لا تعرف معنى ان يغرق الانسان . وان تلطخه الاقذار . . انك لم تشعر ابدا بالم حقيقي . . . بالم مخجل . . بما يشبه الجرح الذي يتقيح . . » ثم انها تعلل هذا الجهل الفاضح الذي يبدو جليا على وجه فلوران ، بان سببه هو البعد عن الفقر والدناءة والخزي والعار ، بينا (هذه البغضاء التي تحفر الاخاديد في وجهها وهذا الصوت الذي يصرخ وهذه التفاصيل التي تشمئز منها النفس تجعلها ولا شك قبيحة كالبؤس نفسه وتجعل وجه خطيبها شديد الشحوب لان الذين هزمتهم الحياة قوم مخيفون حقا) على حين ان غنى فلوران ليس غنى المال، بل هو يتجسد في البيت الذي ترعرع فيه ، في الطمأنينة الطويلة التي عاش فيها ، والتي عاش فيها اجداده ، في حبه للحياة ، في عدم اضطراره الى ان يهاجم احدا او ان يدافع عن نفسه ، في موهبته الفنية .

اما هارتمان ، صديق فلوران ، هذا الانسان الطاعن في السن ، الذي ذاق حنظل الحياة ، فتجشأ عصير مرارتها، ثم حمل حملا على تجرعها ، فقد ابى الا ان يشارك تيريز

في مشاعرها الثائرة حتى انه قال مخاطبا فلوران وفصيلته من الاغنياء المحظوظين: «عندما عرفتك يا فلوران كنت رجلا قد تقدمت به السن... رجلا ينقب دون امل باصابعه التي تفتقر الى المهارة في مادة صماء. كنت شيخا هائما على وجهه يبحث باعياء عن هذه الاصوات السماوية التي سبق ان اهتديتم اليها انتم بدون عناء حينما ولدتم.» وبالتفاتة لها مغزى اي مغزى، وبرفق فيه مسحة من سخرية تتصدى تيريز لفلوران وتتحداه قائلة: «هل يمكن ان تحاول مرة واحدة ان تكون كالاخرين.. جبانا.. شريرا.. انانيا.. فقيرا.. مرة واحدة.. اما يمكنك هذا؟!» وهنا يسقط في يدي فلوران فيقول: «لا ليس هذا في مقدوري.» واخيرا تفر تيريز من حفلة الزفاف بعد ان تكون قد عجزت عن الملاءمة بين نفسيتها وبين البيئة الجديدة.

اما جاستون بطل «المسافر بلا متاع» فهو انسان متمرد على المجتمع لا يعترف بماضيه ولا يقر بحاضره، لان ماضيه كان ماضيا حالكا دنسا، فيه قسوة وحشية، وفساد خسيس، وافاعيل دنيئة، وتصرفات انانية بشعة. انه كان خنزيرا يتمرغ في الاوحال الاسنة، بين ام عفنة الاخلاق متبرمة ساخطة، جافة العاطفة، شكسة وبين اخ مغفل وعشيقة فاجرة ساقطة، خانت اخاه معه، فكيف لا تخونه مع غيره؟

فقد جاستون ذاكرته في الحرب العالمية الاولى، وبعد ان ظل في احد الملاجىء ردحا طويلا من الزمن، وهو في سبات عميق، جاءت به الدوقة ديبون ديفور الى آل رينو، تلك الاسرة التي فقدت ولدها جاك في تلك الحرب اللعينة، ليتعرف جاستون على افرادها، على احتمال ان يكون هو جاك بعينه. غير ان جاستون سرعان ما يجد صعوبة في هذا الدور الذي يفرض عليه فرضا، لانه كان مرتاح البال في الملجأ.. وكان قد الف نفسه وتعرف عليها بثقة وامان. اما الان، فان عليه ان يفارق نفسه القديمة وان يجد نفسا اخرى. وتفتيتا لهذه الصعوبة تنصحه الدوقة قائلة: «جاستون، حاول الا تفكر في شيء، اترك نفسك على سجيتها، دون بذل جهد، امعن النظر في جميع الوجوه. (٢)»

وهذا ما يفعله من غير جدوى، ثم تذكره مدام رينو بصديقه الذي (دفعه من على السلم، وفي اثناء سقوطه اصيب في عموده الفقري) لكنه لا يتذكر لان (ماضي الانسان لا يباع له بالتجزئة). وبعد ان تمعن (الام) في استجوابه يرى نفسه مضطرا الى استجواب جوليت الخادمة، التي تبرعت بان تقص له حكاية صديقه وفعلته القبيحة معه.. فتعترف له بانه كان اول رجل في حياتها وكانت في الخامسة عشر من عمرها، وانها لم تكن الا خادمة صغيرة مهملة، لكن ذلك لم يمنعها من ان تشرب ذلك

الالم الفظيع حتى الثمالة، الم العشيقة المقهورة.

ثم يحدثه جورج (اخوه) عن المشروع التجاري المزيف والايصالات المزورة، التي كلفت الاسرة مئات الالوف من الفرنكات، ذلك المشروع الذي ابتكره من العدم وجعل من نفسه وسيطا له، ومع ذلك فان جورج ما ان يمعن النظر فيه حتى يختنق صوته ويقول: «انك تشبهه كثيرا. هذا وجهه، ولكن كانما مرت به مسحة عذاب.» ثم ما يلبث ان يستطرد وكانما يتحدث عن شخص غائب: «لقد كرهته، نعم كرهته، ثم، بسرعة كبرى، نسيت كيف احقد عليه». وحين يلمح له جورج بما فعل بامراته، يتبالد جاستون برهة ويقول: «هل اخذمنك امراة؟ امراة؟ امراتك؟ (جورج يومىء بالايجاب، جاستون، بصوت مكتوم). «الدنيء» الكلمة الاخيرة ليست كلمة ينطق بها انسان، انما هي شرارة يضعها ملقط ابليس في احدى غابات وادي البؤس اليابسة، لتحولها الى عاصفة من النيران الهائجة التي تلتهم الاخضر واليابس في الوادي باسره. انها نقمة خفية تحل على البشر الجبناء الذين لا يعرفون الا الخسة والدناءة، والطعن في الظهور. انها علة فساد المجتمعات وشر الافات التي تغزو النفوس المريضة فتحيلها، بين ليلة وضحاها، الى خنازير بجلود آدمية.

وعندما تذكره (امه) بحماقة محاولته الزواج (ببنت خياطة لقيها في حفلة راقصة، ووقوفها في وجهه واعلانه عن كرهه لها، يسالها العفو ويتكىء على فقدان ذاكرته قائلا: «.. لعلك ترين ان ماضيا باكمله، بالنسبة لرجل بلا ذاكرة، انما هو عبء باهض اثقل مما يطيق ظهره ان يحمله دفعة واحدة.»

ثم تأتي فالنتين، عشيقة جاك، ذلك الشبح الذي يرهبه من يهم بان يتقمصه، فتكايده بالذكريات المرة، ذكريات الخيانة والجريمة وايام الحرام. فما يكون منه الا ان يقول: «انك تكلمين شخصا يكاد يكون فلاحا من فلاحي الدانوب.. انني رجل متقدم في السن، ولكني اصل الى الحياة جديد الصفحة.» وبعد ان توغل في استشارة ذكرياته معها، تصل في اغوائها الى حد القول «الا يوجد في شيء يناسب شيئا مما في مخزن بضائعك الترفيهية، ابتسامة، نبرة، ؟» وهنا يقطع حبل كلامها المدغدغ بقوله: «لا شيء». غير ان هذا الجواب القاطع لا يقنعها، انما يدفعها الى مزيد من التشبث، فتقول: «ان حياتنا كلها وما بها من مبادئنا الاخلاقية الكريمة وحريتنا العزيزة، انما قوامها في اخر الامر ان نتقبل انفسنا كما نحن.» هذه الفلسفة الواقعية الاجتماعية التي تدمغ المجتمع المتفسخ، هي نفسها التي يسير خلف لافتتها المهترئة القطيع كله من امثال هوسبار المحامي والدوقة النبيلة ورئيس الخدم ومن هم على شاكلتهم من آل رينو، ولهذا السبب بعينه نرى جاستون يرد عليهم قائلا: «انا. انا. اني موجود، انا، برغم حكاياتكم كلها..»

وعلى الرغم من الدليل القاطع الذي تشير اليه فالنتين، فان جاستون يصر على رفضه لماضيه، لانه لم يعد قادرا

---

(١) الشواهد من ترجمة الاستاذ يحيى سعيد لمسرحية «المتوحشة».
(٢) شواهد «المسافر بلا متاع» من ترجمة الدكتور انور لوقا. (٣) شواهد «اردیل» من ترجمة الدكتورمجدي وهبه ـ في (المسرح) ١٤٤ س ١٩٦٥.

على تحمله ، ولانه لا يريد ان يعيد هذا الماضي الاسود ، اذ انه ولد من جديد ، انه انسان اخر غير ما كانه ، انــه اختار وجودا جديدا غير وجوده السابق الآثم ، ولذلك نراه يقول مخاطبا فالنتين : « نعم . اني اقوم الان برفض ماضيَّ وشخصياته ــ بما فيهم انا ــ ربما كنتم اسرتي ، وغرامياتي ، وقصتي الحقيقية . نعم ، ولكن هناك شيئا هو انكم لا تعجبوني .اني ارفضكم .»

اما بيت الدنس ، بيت اردبل اخت الجنرال ، فهــو بؤرة الفساد الارستقراطي ، فالجنرال يعشــق خادمته آدا ، والكونتيس اخت الجنرال تعشق فيلاردبو، والكونت زوج الكونتيسة يعشق احدى الخياطات ، ونيكولا الابن الثاني للجنرال يعشق ناتالي التي تزوجت اخاه الاكبر . وهكذا نجد الانحلال مستشريا في هذا الماخور ، والتفسخ ساريا فيه ، بحيث لم يبق منه موضع لم ينله الشر بانيابه السود ، ان الجو داكن بل اسود ، تتطاير منــــه روائح النتن والعفن ، كل فرد من الاسرة غارق الى اذنيه فــي الاوحال الخبيثة ، الا توتو الابن الاصغر وماري كرستين ابنة الكونتيس الصغيرة ، والا العمة آرديل الحدباء التي تجاوزت الاربعين من عمرها . تجاوزته وهي لم تذق طعم الحب ، اما لانها حدباء قبيحة ، وهذا هو المرجح ، واما لانها جاءت الى قطار الزمن متأخرة ..

وذات يوم حل في دارهم رجل احدب هو الاخر ، وهو موسيقي بارع جاء ليعطي دروسا في هذا الفن الجميل لآرديل ، وبسبب الصلة الوثيقة بين الاستاذ وتلميذته ، يصبح الجو ملائما لحب عنيف بين الاحدبين ، حب عفيف طاهر غريب على هذه البؤرة الشريرة، ولذا ما يلبث هذا الحب الا قليلا حتى يثير عاصفة ، بل اعصارا مدمرا يقترب تدريجيا من اسس بيت الجنرال ، مهددا متوعدا .

ولما كان الجنرال رجلا حصيفا مترويا لا يجد مفرا من عقد مجلس عائلي لدراسة مشكلة حب اخته لهذا الموسيقي الفقير ووضع الحلول المناسبة لها ، وراي الجنرال فــي الحب واضح فهو يقول : « ان الانسان يعتبر وحيدا في الحياة ، لذلك فانه يكون في حال افضل اذا لم يثقل نفسه بحب شخص اخر . . .وان للحب عدوا كبيرا ، ذلك العدو هو الحياة (٣) ». اما العشق فهو شيء يرتاح اليه كــل الارتياح ، فحين تنفي الكونتيسة ذلك باعتباره حلما حلوا، وتقول له ساخرة : « لها عشيق ! لا بد انــك نائم وانك تحلم » . يجيبها اخوها الجنرال : «كم اتمنى لو كان الامر كذلك ، ولكنني منذ ثلاثة ايام اقرص يدي احيانا واشكها بدبوس احيانا لاتأكد مما اذا كنت مستيقظا او غير مستيقظ حتى تورمت يدي ، ولم يظهر ما يدل على انني نائم . . » هذا تبلد طبيعي يصيب مثل هذه الفئة من الناس ، حين يواجهون الحقائق عارية من النفاق والرياء والدجل ،ذلك انهم بطبيعة الحال لا يحاولون شيئا غير المحافظة علــى المظاهر ، على ما ذهب اليه الكونت . اما ليليان الغيور على زوجها « فهي مستعدة لكل تضحية في سبيـــل الحيلولة بينه وبين عصفورته ، فهي لذلك ترسم خطتها على الا يفارقها طوال اليوم ، وهذا ما يجعلنا انا وهــي وهو متلازمين دائما اشبه بدورية واحدة .» هكذا يقول عشيق الكونتيسة بالحرف الواحد ، وهو في هذا القول يعبر عما في نفوس سكان وادي البؤس ، من توتر فظيع يشـل الاعصاب شلا ، ويجعل من كـل مسام الانسان عيونا راصــدة ، وغيرة قتالة فاجــرة ، غيــرة من نوع ارستقراطي جديد ، غيرة المراة العاشقة على زوجها العاشق.

وفي هذا ما فيه من قيم مدنية حديثة تتبــوأ مكانها في راس الهرم من الكيان الاجتماعي الحديث .. لكن الكونت العاشق لا يرى راي الاخوين في اختهما اردبل . فحين تتباهى الكونتيسة بانها حرة تتصرف بحياتها الخاصة كما تشاء يرد عليها الكونت ببرود قائلا : « وكذلك العمة اردبل من حقها ان تكون حرة في تصرفاتها . . . ان امركم لعجيب لماذا تحللون لانفسكم شيئا ثم تحرمونه عليها هي ؟» وعلى الاثر تكاشفه زوجته بالحقيقة بقولها : « يا جاستون حاول الا تسرف في البلاهة .. انت تعلم ان كـــل هدفنا هو محاولة تجنب الفضيحة بقدر المستطاع .» وهنا يجيبهــا الكونت بقوله : « هذا كلام فارغ.. ومن اين تتاح للناس موضوعات للتفكه والتسلية ؟»

اما العمة اردبل ، فهي بعد ان انكشف امرها ، لم تر بدا من الاعتصام بغرفتها والاضراب عن الطعام ، انها قررت ان تواجه مستقبلها بشجاعة ، ولــــو كانت ــ في تلك المواجهة ــ فضيحة كبرى ، تهبط على الاسرة كلها هبوط كارثة مدمرة . . . الجنرال يريدها ان تنزل من غرفتها من غير جدوى ، والكونت يحاول عبثا اقناعها بالاقلاع عــن عزيمتها ، وهو حين يقول : « يا عمتي آرديل مطلوب مني ان اتحدث اليك عن الجواب » لا يلبث الا لحظة ليقول : « اتريدين الحق ، نحن لا نملك في الحياة سلوكا محترما، ولولا شعورنا بالواجب لظهر لك قبح سلوكنا في صورة ابشع واشنع .» وممن يحدب على الحدباء غير الكونت نيكولا ابن اخيها ، ولذا نراه (يصعد السلم بسرعة كبيرة ويدق الباب بكلتا يديه ويقول) : « اصمدي يا عمتي .. اضحكي للدنيا اضحكي.ما هذا الذي يسمونه فضيحة ؟ انهم اذا لم يقولوا انك عجوز ، وانك شوهاء قالوا انــك صغيرة وطائشة .انهم على كل حال لا بد ان يبحثوا عن شيء يشوهون به الشعور بسعادة الاخرين .» ولكن كل هذا العطف لم ينته الى حل لمعضلة اردبل ، لان المجتمــع الذي تعيش فيه عدوها ، بتقاليده المرائية المنافقة ، ولذا لم تجد بدا من ان تنتحر هي وحبيبها في الغرفة التي اعتصمت بها . . . وهكذا خرجت من عالم الموتى لتدخل الى عالم الموت ، ولكنها خرجت منه برفقة من احبت لاول مرة ، وهكذا يكفيها ، انهادقت ناقوس الفضيحــة فــرن صوته عاليا في وادي البؤس الذي كتب عنه جان انوي الكثير من مسرحياته الرائعة ولا سيما طرفته «انطيفونا» التي تعد قمة شامخة من قمم الادب الغربي المعاصر ، كما كانت انطيفونة صوفكليس في العهد الاغريقي الغابر .

بغداد — **يوسف عبدالمسيح ثروة**

روحي الخالدي ـ طاهر الطبري

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ روحي يس الخالدي

ولد في بيت المقدس عام١٨٦٣ وتحدر من اسرة «الخالدي» المتصل نسبها بخالد بن الوليد البطل العربي الكبير ،ونشأ في بيت عريق انجب القضاة (١) والعلماء والنواب . وفي عهد راشد باشا والي سورية الشهير انتخب والد المترجم له المرحوم يس بن محمد علي الخالدي عضوا في المجلس العمومي ببيروت عن القدس ثم عيّن لنيابة طرابلس الشام وكان يتنقل بين هاتيك البلاد باسرته و « روحي » في عدادها .

ولما عزل راشد باشا تزعزع مركز انصاره والمنتسبين الى « حزب الاصلاح » فعاد المرحوم يس الخالدي الى القدس وارسل ولده « روحي » الى الكتاتيب والمدارس الابتدائية الاميرية ، ولما تولى مدحت باشا رجل الاصلاح ولاية سورية اخذ يجمع من يثق باخلاصهم ونزاهتهم ويعيدهم الى مراكزهم الاصلية ، وارسل المرحوم يس الخالدي قاضيا شرعيا لمدينة نابلس فادخل « روحي » المكتب الرشدي ثم نقل قاضيا شرعيا الى طرابلس الشام فبعث بولده الى المدرسة الوطنية التي انشأها عهد ذاك في طرابلس المرحوم الشيخ حسين الجسر وادخل عليها وسائل التعليم الحديثة .

الى الاستانة : وفي اثناء ذلك صحب « روحي » عمه المرحوم عبد الرحمن نافذ الخالدي الى الاستانة ، وكان شيخ الاسلام عهد ذاك عرياني زاده احمد اسعد افندي فقابله عبدالرحمن وقد اراد ان يزيد في رغبة ابن اخيه في طلب العلم فأنعم شيخ الاسلام على « روحي » برتبة علمية وعند ايابه الى القدس اخذ يحضر حلقات الدرس في المسجد الاقصى ويتلقى علوم الفقه والتوحيد والحديث والصرف والنحو وسائر العلوم العربية ويتردد علىمدرسة الاليانس والكلية الصلاحية للاباء البيض ليتقن اللغة الافرنسية .

روى عن نفسه انه في احد المواسم صحب اباه واعمامه ونخبة من وجوه القدس الى اريحا ومعهم الات الطرب ، فضربت لهم الخيام على « عين السلطان » وقضوا اياما على الطريقة الشرقية وحولهم سكان اريحا واعرابها ، واذا بفوج من السياح الاجانب قد نزلوا على العين فشاهد « روحي » نظامهم وحركاتهم وسكناتهم واختلاط نسائهم برجالهم ، واستقراءهم طبيعة تلك البلاد بـ « دليل » مطبوع . وراى احدهم واقفا ازاء مائدة وهو يشرح للسياح تاريخ الاراضي المقدسة ، وما كانت عليه من العمران في العهود الغابرة ، فأدرك الفارق بين الحياتين الشرقية والغربية ، وقرر ان الحياة الاولى قائمة على النفوذ العائلي والعصبية القبلية وان الحياة الثانية قائمة على العلم والحرية والاعتماد على النفس .

وانتظم روحي في سلك موظفي العدل وعمل في القدس لكنه ذات يوم قرر السفر الى الاستانة للالتحاق باحد معاهدها العالية ، لكن والديه حالا دون سفره ، واخيرا اشترى تذكرة سفر على ظهر باخرة اقلعت به من ثغر يافا لكنه اكره على العودة وعيّن رئيسا لكتاب محكمة غزة ، ورغم هذا الاغراء ابى الالتحاق بعمله الرسمي هذا بل سافر الى الاستانة ودخل المكتب الملكي وسلخ فيه ستة اعوام نال في نهايتها الشهادة العالية وعاد الى مسقط راسه فعيّن معلما في المكتب الاعدادي لكن طموحه ابى عليه قبول هذه الوظيفة مؤثرا ان يتولى وظيفة ذات شان فعاد الى استانبول يطلب وظيفة قائم مقام وكاد يتم تعيينه لو انه تريث قليلا .

الى فرنسا : بارح روحي الاستانة الى باريس ودخل مدرسة العلوم السياسية فاتم دروسها في ثلاثة اعوام ثم انتقل منها الى دار الفنون العالية (السوربون) ودرس فيها فلسفة العلوم الاسلامية والاداب الشرقية ، وكان يتردد على ندوات كبار المستشرقين فدعوه لالقاءالمحاضرات العربية ، فلبى الدعوة وكانت باكورة محاضراته « الاسلام في عصرنا الحاضر » وقد تناقلتها صحف مصر وسورية وباريس ، ويعد روحي اول مثقف عربي القى محاضرات بالعربية في ندوات باريس .

وفي باريس عيّن روحي مدرسا في جمعية نشر اللغات الاجنبية في فرنسا وكان ينشر خلاصة مباحثه وتحقيقاته في كبريات المجلات والصحف واسهم في مؤتمر المستشرقين المنعقد في باريس عام ١٨٩٧ والقى فيه احصاءات دقيقة عن العالم الاسلامي .

في السلك القنصلي : وفي عام ١٨٩٨ عاد روحي الى الاستانة فصدرت الارادة بتعيينه قنصلا عاما للدولة العثمانية في مدينة بوردو بفرنسا وانتخب عميدا للسلك القنصلي فيها ولما اقيم المعرض (٢) البحري العام في بوردو عام ١٩٠٧ كان روحي من المسهمين في اقامته ، وجزاء لجهوده اهدته بلدية بوردو وادارة المعرض هدية نفيسة ومنحته الحكومة الفرنسية وسام المعارف الذهبي ووسام جوقة الشرف .

وخلال تلك المدة كان ينشر المقالات الوافية في كبريات المجلات العلمية الفرنسية عن اثار الشرق العربي وعاداته وتقاليده ويوقعها بتوقيع «المقدسي» ولما اعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨ عاد الى بيت المقدس وانتخب نائبا

عنها في مجلس النواب العثماني ، ولما اعيدت الانتخابات عاد مواطنوه الى انتخابه مرتين اخريين نائبا وفي مجلس النواب العثماني انتخب نائبا للرئيس .

وفي آخر زورة قام بها روحي الى استانبول توفي في السادس من آب ١٩١٣ اثر اصابته بالتيفوئيد فقضى مبكيا على علمه وخلقه .

من آثاره القلمية : (١) تاريخ علم الادب ، عند الافرنج والعرب طبع عام ١٩٠٤ . في هذاالكتاب قارن المؤلف بين الاداب العربية والاوروبية ، وذكر ما اقتبسه الافرنجي من الاداب العربية ، ونشر هذا الكتاب فصولا في مجلة «الهلال» بتوقيع «المقدسي» وطبعته هذه المجلة على نفقتها غفلا من توقيع صاحبه ثم اعادت بنشره بتوقيعه الصريح . (٢) المقدمة في المسألة الشرقية : في هذا الكتاب تناول المؤلف المسألة الشرقية منذ نشأتها الاولى الى الربع الثاني من القرن الثامن عشر . (٤) العالم الاسلامي : نشره فصولا في جريدتي «المؤيد» و «طرابلس الشام» وفي مجلة «الهلال» ، ولخصت جريدة « طرابلس الشام » من فصوله رسالة نشرتها في كراس . (٤) الكيمياء عند العرب : نشرته دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٣ . (٥) رحلة الى الاندلس : وصف فيه المؤلف الاثار العربية في تلك الديار (وما زال هذا الكتاب مخطوطا) . (٦) الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة : الّف هذه الرسالة في الشهور الاولى من اعلان الدستور العثماني ونشرتها مجلتا «الهلال» و«المنار» القاهريتان وطبعتها « المنار » رسالة على نفقتها . (٧) تاريخ الشرق وامرائه : نشر فصولا في مجلة « الهلال » . (٨) علم الالسن في مقابلة اللغات : ما زال مخطوطا . (٩) تاريخ الصهيونية : لقد عاجلت المنية المؤلف قبل انجازه . (١٠) ترجمة برتلو العالم الكيمائي . (١١) تراجم اعلام الاسرة الخالدية .

نموذج من نثره : « فاذا تأملنا كلام « المعري » ومن سلك مسلكه من الشعراء نجد فيه اهتماما زائدا بأمر الاخرة وبما بعد الموت ، وتفكرا عميقا في خلق السموات والارض ، ودهشة وحيرة زائدة وانفعالا نفسانيا واحساسا غريبا ، فكأن كلامه يدخل تحت التعريف المتقدم ذكره للطريقة الرمانية . ولكن بسبب فقده حاسة البصر ، التي لها المكان الاول في هذه الطريقة ، لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفا لائقا بها وبفصاحة لسانه ، ولا حاجة لايراد مثال من كلام المعري فان كل كلمة من « اللزوميات » تشعر بهذه الدهشة والخشية والحيرة والانفعال والاحساس والتألم الما يهون معه الموت ولا يحسب بجانبه مصيبة ، وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في اول كتاب الحيوان : (جنبّك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة سببا ، وبين الصدق نسبا ، وحبّب اليك التثبت ، وزيّن في عينيك الانصاف ، واذاقك حلاوة التقوى ، واشعر قلبك عز الحق ، واودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الزلة ، وما في الجهل من القلة !) .

فهو بعيد عن القلق والحيرة ، متثبت في الفكرة ، وتأليف الكلام على هذا النمط يسمى ـ طريقة الجاحظ ـ وهي مخالفة لطريقة السجع » .

٢ ـ الشيخ طاهر الطبري

ولد في طبرية بفلسطين عام ١٨٩٥ وانهى دراسته في مدرستها الاميرية وتتلمذ على الشيخ سليمان العابودي ورسم شيخا واعتمّ وهو في الثالثة عشرة من عمره .

والتحق الشيخ طاهر بجامعة الازهر الشريف حيث درس فيها الشريعة والعلوم وبعد ان تخرج منها قصد استانبول والتحق بجامعتها واتم فيها دراسة الشريعة الاسلامية والقضاء .

وفي اوائل عام ١٩١٤ عاد الى طبرية وانتخب مفتيا خلفا للشيخ عبد السلام الطبري (٣) ، وفي العهد الفيطلي انتخب عضوا في المؤتمر السوري الذي اعلن استقلال سورية وبايع فيصل بن الحسين ملكا شرعيا عليها في شهر اذار ١٩٢٠ .

وظل الشيخ طاهر يستغل مركز الافتاء في طبرية بالاضافة الى تعيينه قاضيا شرعيا حتى تاريخ حلول النكبة الفلسطينية (١٩٤٨) .

وخلال الحرب العالمية الثانية نقل من قضاء طبرية الى قضاء عكا فقضاء الناصرة . وعندما اجتاحت فلسطين النكبة الكبرى كان يقيم في الناصرة وبعد ان استباحها العلج الصهيوني انتحر « خير » ولده البكر وكان ، رحمه الله في طليعة المجاهدين الذين قارعوا الخصم وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره .

وعلى الرغم مما صحب الاحتلال الصهيوني من ارهاب وتحد فقد كان للشيخ طاهر مواقف صلبة مشرفة في وجه اولئك الاعداء الفاجرين .

وتميز الفقيد بنشاطه ومواقفه الجريئة في القضية

---

(١) انجبت اسرة الخالدي رهطا كريما من الادباء والعلماء والفقهاء والمربين والمؤرخين ، كان منهم في القرن السابع عشر صلاح‌الدين خليل بن ايبك الصفدي الخالدي صاحب « الوافي بالوفيات » في ثلاثين مجلدا و « تاريخ الامير فخر الدين المعني الكبير » الذي نشرته وزارة التربية والتعليم اللبنانية . ومنهم يوسف ضيا باشا الخالدي عضو مجلس النواب العثماني الاول وكان من صفوة اعضائه واكثرهم غيرة وعلما وادبا ، ومنهم الشيخ خليل الخالدي مؤسس « المكتبة الخالدية » الشهيرة في بيت المقدس والموصوف بالاطلاع على المخطوطات العربية النادرة . (٢) اقيم هذا المعرض الكبير بمناسبة مرور ١٠٠ عام على تأسيس الاسطول البحري الفرنسي . (٣) هو والد الوجيه الفلسطيني المعروف الاستاذ صدقي الطبري . (٤) بمناسبة خروج الاستاذ السيفي من معتقل عكا ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ .

طيـف

طيف المَّ بخافقي التعب ... وأثار فيه كامن اللهب
فانسابت العبرات في خفر ... ما بين مضطرم ومنسكب
صور من الماضي تلوح لي ... فتحيلني فيضا من العتب
أو ما بترت خيوطها بيدي ... او ما زرعت الثلج في اللهب
عود على بدء يؤرقني ... مالي ودنيا الحب والنصب
هي ذكريات عشتها زمنا ... للمتها بـرواعش الهدب
لا لن أعود اليوم أحضنها ... فاضيع بين الجد واللعب
ولطالما أهوى بصاحبه ... عبث تخطى فورة الطرب

لكنه قد لاح معتذرا ... طيف جلته صحوة السحب
فعلام اطفى حدة وجودي ... أو ما أرقت لخافقي السغب
أو ما جعلت الذنب مغفرة ... أو ما سلكت الوعر للارب
حتى اذا ما جاء يغمرني ... برؤى الاحبة طائف الكذب
أبعدته عني مكابرة ... أمكابر في الصدق والكذب ؟
سأذيب عمري في توهجه ... طيف الم بخافقي التعب
طيف سيبقى العمر مؤتلقا ... تعنو لديه أسطع الشهب
ستظل ذكرى حبه أبدا ... في اضلعي موصولة النسب

دمشق

سلافة العامري

الفلسطينية خاصة والعربية عامة ، فمنذ حط الاحتلال البريطاني رحاله في فلسطين قاد الشيخ طاهر الحركة الوطنية في طبرية وقضائها وتراس « الجمعية الاسلامية المسيحية » واشترك في سائر المؤتمرات الفلسطينية والعربية التي عقدت في فلسطين وخارجها ، وظل موردا عذباللمجاهدينالذين قاوموا الاستعمار البريطانيواسرائيل.

وكان رحمه الله اديبا لبقا وشاعرا رقيقا وخطيبا مفوها ، وخلف ديوان شعر مخطوط اعده للنشر قبيل النكبة ، ولا شك في ان المأساة الكبرى وما رافقها من مآس ومحن شحذت شاعريته وحركت في نفسه مشاعر قومية صاغها شعرا ونثرا . وفي شهر اذار من عام ١٩٥٩ توفي بمدينة الناصرة عن حياة حافلة بالجهاد والرجولة.

نماذج من شعره : اقترح الاستاذ طلعت السيفي مدير المدرسة الثانوية الاميرية في طبرية على صديقه الشيخ طاهر وصف بحيرة طبرية شعرا فاستجاب وأنشد فيها قصيدة منها :

الماس ان سالوك عنه قل لهم ... هذه البحيرة سطحها الماس
واللؤلؤ الوضاح في صفحاتها ... متناثر هو كله ايناس
والشمس ان عكست اشعتها بها ... هدل الحمام وانصت الجلاس

واثر نقل الاستاذ طلعت السيفي من ثانوية طبرية الى ثانوية صفد انشد الشيخ طاهر مداعبا صديقه بقصيدة منها:

ما شعرنا بوحشة واغتراب ... يا ابن سيفي الا لطول غيابك
والقريض الذي عهدت عصانا ... وبنات الافكار صرن كذلك
يا نجاشي لذ فيك التصابي ... قد خلقت الهوى بفرط دلالك
صفد الخيّرين فيك أنيس ... وامير قد حط في عقر دارك

فأجابه الاستاذ السيفي بقصيدة منها :

نعمت الان يا قلبي ... بعطف (الطاهر) الصب
لطيف طاب محتده ... وفي صادق الحب

صفي أنت يا زيني ... لقد قرئت بكم عيني
وزالت كربتي عني (٤) ... بوجه حسنه يسبي

وفي خريف عام ١٩٤٠ فجع العرب بمطران العرب المغفور له غريغوريوس حجار ، رئيس اساقفة عكا وحيفا والناصرة وسائر الجليل فرثاه كبار الشعراء العرب وأشادوا بجهاده المتواصل في سبيل نصفة فلسطين وخلاصها من محنتها الكبرى ، ووصفوا الخسارة التي اصابت الارض المقدسة بوفاته . وممن رثوه صديقه الشيخ طاهر الطبري ومن قوله :

نصبوك بطريقا ام تركوك مطرانا ... وكسوك بالصوف أم تركوك عريانا
او الهوك وقالوا في كنائسهم ... فوق المنابر ان قد صرت دهقانا
او قدت،او قلت،او ارشدتفيبيع ... او كنت للناس في التاريخ سلطانا
لا يزدريك ولا يجديك ما فعلوا ... وما فعلت اذا واجهت ديّانا !

ومن مرثاته :

يا أيها الناس كفوا عن ضلالكم ... قد ضجت الارض من اشلاء قتلانا!
حتى الضواري التي كنا نعيّرها ... راحت تطالب بالانصاف مولانا

ومن شعره في بحيرة طبرية :

قل لمفتون بخمر الاندرينا ... بل وزحله نحن عن خمر نهينا
فاعتزل كاس حميًا وسرينا ... بحرتي لشارب كانت معينا
فرد البحرة واملاها حنينا

يا حمامات البحيره هاك فني ... يا حمامات البحيره وارووي عني
فاذا جئت لها املا دني ... من مياه طاهرات فادني مني
واملاي سمعي بترجيع وغني !

عمان

البدوي الملثم

« حلٌ معقول . ولكن كيف اتخلص منها ؟ اقتلها . وبعدها ؟.. ادفنها في حديقة الدار ، الى عمق عشرة امتار . واذا طرق احدهم الباب وانا ادفنها ؟ لافترض ان الجيران سمعوا الضجة .. ماذا افعل ؟ يجب ان تكون الخطة محكمة . اذا حل الليل انقضّ عليها واشق صدرها ، فوق القلب تماما ، تموت حالا .. يجب ان تموت . الدم ! آه.. الدم مشكلة . لونه .. اثاره مشكلة .. مشكلة . »

دخل منير المقهى وراسه محشوة بهذه الافكار الغريبة . وبعد ان صافح صديقه بصمت ارخى جسمه على الكرسي وراح يربط نظراته بما وراء زجاج المقهى ، وقد شبك اصابع يديه فوق الطاولة .

مرت لحظات صامتة .. قدم له بعدها الصديق لفافة ، فانتشلها منه ليعلقها بين شفتيه . امتص طرفها ثم نزعها بحدة ونزق ومسح لسانه بطرف اصبعه ، وهو يشد عضلات وجهه ويجمّعها . قال له الصديق :

ــ رديئة ؟!

لم يجب عنه ، اذ آثر الصمت ، وعيناه معلقتان بسماء القاعة التي تنعقد فيها سحائب دخان اللفافات . داعبه الصديق :

ــ الا تلعب ؟ انا اليوم متحمس للعب .. اريد ان اربح .

فتش منير جيوبه بكلتا يديه ، وراعه انه نسي سبحته ، فتمتم بكلمات غامضة ثم قال بصوت خفيض :

ــ انا ايضا اريد ان اربح .

ابتسم الصديق وطلب من النادل احضار رقعة الشطرنج . همهم منير ثم همس :

ــ الدنيا كلها لعب.. لعب بلعب.

وجد الصديق فرصة للحديث:

ــ انت منذ مدة على غير عاداتك .. اقصد .. تغيرت .

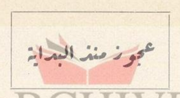
واسرع منير يبريء نفسه من هذه التهمة :

ــ انا لم اتغير .. الايام وحدها تتغير .

ودارت الافكار في رأسه .. « ماذا اقول للناس ؟ اختفت . اجل ، لقد اختفت. احبت رجلا .. شاباوهربت معه . الى ايـن .. لست ادري . اختطفها .. اختطفته ، لا قيمة لذلك . ذهبا معا الى جهنم . ولكنها عجوز قطعت الخمسين . فكرة مجنونة . الدم لا زال مشكلة . لون الدم يفزعني . لو كانت هناك طريقة اخرى !» وضرب براحته على حافة الطاولة فأحدث صوتا نبّه بعض الرواد القريبين منه ، فأغرقوه بنظرات فارغة . قال له الصديق :

ــ صرت عصبيا .. متاعب في البيت ؟

تشاغل منير بفرك جبينه وتلمس



بقلم جهاد الكاتب

شعره الأشيب .. « يجب ان اهيء كل شيء حتى لا يحدث خطأ . لو علموا بانني اريد ان اكمل حياتي طليقا .. سعيدا ، لساعدوني على اخفائها ، بأي شكل كان . لو اخترت الة اخرى .. للقتل ! المسدس ؟ لا. له صوت . صوته يكشفني . الخنق معقول . فكرة عظيمة .. سهلة . أحط المخدة فوق رأسها دقائق .. ثم اخفيها .. وينتهي كل شيء . كيف لم افطن الى تجاعيد وجهها وبياض شعرها ؟ عندما تزوجتها منذ خمس وعشرين سنة كانت تبدو جميلة . خدعة لعينة ، جميلة تنقلب



الى عجوز . تلك حقيقتها من البداية .. منذ ولادتها عجوز . ادخل عليها . احاورها . ابتسم . انام . اتظاهر بالنوم . تنام هي مطمئنة بعد انتنزع اسنانها الصناعية . انهض واخنقها بالمخدة » .

احضر النادل رقعة الشطرنج وزلقها على الطاولة ، فبادر الصديق يقول :

ــ الحجارة البيض ، ام السود ؟

واجاب منير على الفور ، ودون تفكير :

ــ البيض .. يجب ان اربح .

ــ دوما تلعب بالحجارة البيض ودوما تخسر .

ويبدو ان منيرا كره اللون الاسود، فهو يبعث في نفسه ذكريات اليمة تصل به احيانا الى حد الشتم واللعن. عندما توفي والده قبل خمسة عشر عاما امر منير زوجه بلبس الثياب السوداء حدادا ، فرفضت ، واصر هو على ذلك . واصرت هي على رفضها . ان كلماتها لا زالت تطن في اذنيه « الناس كلهم يموتون . نحن ايضا سنموت . والدك كان هرما . عجوزا . اتمنى ان اعمّر نصف ما عمّر ! » ويومها احتد غضبه . صفعها وصرخ في وجهها :

ــ اذا مت انا ، الا تلبسين الثياب السوداء ؟

واجابته على الفور،وبلهجةساخرة:

ــ لا اعتقد ان الميت يبكي اذا رفضت .

صف الصديق حجارته فيمربعاتها وانتظر ان يقوم منير بنفس العمل . ومرت فترة غير قصيرة ومنير يحدق في الحجارة يريد ان يفترسها ، فاستدرجه الصديق :

ــ اذا كنت تشاجرت مع زوجتك، قم اصالحك معها .

ولم يرفع منير رأسه .. « اذا طلقتها اتخلص من الدم .. كلجمالها كذب في كذب . الصورة المعلقة على الحائط في صدر البيت لنا ، انا

وهي ، يجب ان تمزق . كنت يومها شاباً ، ولا زلت . انني شاب . ومن قال انني كهل ؟ آه لو انجبت طفلا واحدا ! حتى الاسنان لم تخطر على بالي . اسنان صناعية في فم واسع، وشفتين متدليتين ! يجب ان اوقف هذه اللعبة . كانت تمثل فخدعتني ، والان نسيت التمثيل . طيب ، والله غدا تصبح عرجاء .. اكبس السكين في قلبها ، لن تنطق حرفا . المخدة معقولة . اسهل في العمل ». وفجاة انتصب منير واقفا وقد تصلبت عضلات وجهه وبدت عليها دلائل الارهاق . واحس الصديق ان منيرا في ازمة . فما كان منه الا ان قام وحاول ان يقعده :

ـ اخز الشيطان . لا حول ولا قوة الا بالله . يعني اليوم .. اليوم بالذات طلع جنونك ! احوالك غريبة . ساكت .. ولا تلعب .. وعصبي !

قعد منير على كرسيه وهو يحاول ان يكون هادئا . ويبدو ان الافكار الخبيثة كانت قد تنفذت بارادته وعقله ، فما كان منه الا ان صرخ ، وهو يضغط على اسنانه :

ـ حرام .. حرام .

ناوله الصديق لفافة فرفضها ، واقسم الصديق عليه ان يتناولها ويدخنها حتى يروق ذهنه ، فانصاع للقسم والافكار تتصارع في راسه .. « .. دفنت نفسي معها .. لو انجبت طفلا واحدا .. قردا .. اي شيء كان لكنت الان ابا . لن يذكرني احد بعد موتي . كنت اعيش في حلم . تقول لي انت صاحب المشكلة .. العطل منك . ترمي كل الحمل على ظهري والناس يعلمون انها لا تنجب. الطبيب قال هذا . هي عجوز . كل صبية تلد . زوجتي تلد ايضا ؟وماذا تلد ؟ الف كلمة في الدقيقة مثل المطر تماما .. » افاق منير على صوت صديقه يقول له :

ـ اسمع .. منذ بعيد وانتما تتشاجران واصالحك معها . يعني القضية تحتاج الى حل . حل نهائي. طلقها يا اخي .

واجاب منير وهو يدق على صدره بكفه المنقبض :

ـ بعد كل الذي حدث اطلقها ؟! انهي القصة بهذه البساطة ؟

ـ طيب . تزوج امراة ثانية .

ـ اتزوج ! كل الناس يعرفون انني صاحب المشكلة .

ـ كم عمرك الان ؟

وارتبك منير . وبدا كانه يواجه نداء المصير ، فبان الحرج على وجهه وغلبه الصمت ، فانتشله الصديق من ارتباكه :

ـ نحو ستين سنة ، صحيح ؟

ـ ابدا .. ابدا .

قالها محتدا ، فابتسم الصديق وتابع حديثه مسترضيا منيرا :

ـ طيب . نحو خمس وخمسين ، صحيح ؟

قال منير صارخا ، وقد ضغط بقبضته على الطاولة :

ـ اسئلة سخيفة .. ثلاثين .. اربعين .. خمسين ، المهم انني لست عجوزا مثلها . واتبع ذلك بكلمات بذيئة ، ثم هدأ .

اعاد الصديق صف حجارة الشطرنج وانصرف منير الى فك ربطة عنقه وخلخلة الهواء عبر رقبته الى صدره : « لا اريد تعبئة عيني بمنظر قبحها. في الصباح والظهر .. والمساء نفس التجاعيد والشعر المنفوش . قردة تخرج .. تهرب من السيرك. ابدا . اراهن ان للشيطان دخلا في الموضوع. شيطانة في هيئة انسانة . ساحرة خنزيرة . انتهى كل شيء . لن اناقش عملي بعد الان . يجب ان اكون شجاعا » . ومرت بينهما دقائق صمت مملة ، رفع بعدها منير راسه وقال متباطئا :

ـ اذا سمعت عني شيئا غدا ، تصدق ؟

دفع الصديق جنديه الاول على رقعة الشطرنج مربعين ، واجاب :

ـ استطيع معرفة هذا الشيء ؟

ـ قد يتهموني .. انا لست مجرما.

وسكت منير .. « صحيح ان اسناني بعضها يتخلع ، ولكن يجب ان يزول هذا بمجرد ان اخفيها . تختفي، وتعود اسناني الى قوتها ، اكسر بها الجوز والبندق . كل شيء الا الفضيحة . واذا فشلت ؟ لن افشل. اخلع ملابسي. لا اشعل اي مصباح. ضوء القمر يساعدني على معرفة طريقي الى حديقة الدار . آه لو كانت هناك طريقة اجبرها على حفر الحفرة بنفسها ثم .. عشرة امتار طويلة تستغرق ساعتين .. ثلاثا ، اربعا .. المهم ان احفر . كل سنة بمتر . خمس وعشرون سنة بخمسة وعشرين مترا . معقول . المجنونة تعيرني بضغط الدم . يعني انا مثلها .. ائن واصيح .. وامرض ، واتجرع الادوية والشرابات المقوية وابلع اقراص الفيتامينات ! هي وحدها تفعل ذلك. ومع ذلك فهي نحيفة مثل خطوط المياه . ملعونة . ملعون انا ، اذا تركتها ترى شمس النهار . عشرة امتار بعيدا عن الارض تكفي . »

وجد منير نفسه فجاة على رصيف احد الشوارع . ولم يتذكر ان كان قد ودع صديقه في المقهى . وشعر انه في حاجة الى شيء يضغط عليه باصابعه فاشترى جريدة ولفها كالعصا وراح ينقر بها كفه .

كانت الشمس قد اختفت منذ ساعات . نظر منير الى ساعته وابتسم .. « الان تدفن نفسها في الفراش . اغطي بالمخدة وجهها .اقعد فوقه دقيقة .. دقيقتين .. الى ان تصمت . ان كانت مستيقظة فمعنى هذا انها تعلم مسبقا بفكرتي .. لعينة . اعرف خبثها . تتعامل مع احد السحرة . كل مرة انظر اليها ارى الموت امامي . لا احد يطيق الموت . هذا فظيع ! الموت للعجائز معقول . انا لست عجوزا لذلك يجب ان اعيش ».

دخل الى البيت متلصصا .اختلس نظرة الى غرفة النوم عبر النافذة المفتوحة فسره ان زوجته نائمة .

وبعد ان سمع شخيرها اطمأنت نفسه، ودبت فيها نشوة الانتصار . مسح عرقا تجمع فوق جبينه بطرف كمه، وقال مع نفسه : النوم مثل الموت .. احفر الحفرة اولا .

خلع سترته وحذاءه ، وجسمه يرتجف ، لا من الخوف وانما من النسمة الباردة التي ظنها قد لفحت فخذيه . ودخل الحديقة على رؤوس اصابع قدميه . لعن القمر والغيوم وهو يفتش عن المعول . وخيل اليه ان شبحا اسود طويلا يهمس في آذان شجرة التين همسا ناعما متحشرجا كأنه يخرج من اعماق مقبرة مهجورة. وترامى الى سمعه نباح كلب صيد فارتجفت ساقاه وراح يحرك حدقتي عينيه فقط . ومن اقصى العتمة التي تغلف الحديقة تراءى له موكب زفافه .. هو بجانب عروسه في ثياب قاتمة جديدة .. بسمتان على شفاههما . ايديهما في تلاصق . الكتفان متلاحمان . وخيل الى منير ان وجوه المحتفين بالزفاف تنقلب غاضبة . كأنه يسمع العويل والصراخ والنحيب . واراد ان يتخلص من هذه الاوهام فاسرع يضرب الارض بهدوء ضربات خفيفة بدون تعيين للمكان . ثم لم تلبث ضرباته ان قست ، وبدت مشبعة بالنقمة .

اهتزت كتل جسمه ، وسال عرقه حتى ذقنه ، وظهر جانب من القمر المتخفي وراء الغيم الاسود فلعنه منير من جديد وهو يجدّ في الحفر .. « عشرة امتار .. عشرة امتار .. عشرة .. امتار .. ادفنها .. في عشرة .. امتار . يجب ان اعيش . عشرة امتار تكفي . الغيم اسود . القمر العن من الغيم . »

طرق سمعه مواء القطة الزيتونية. ولمح عن بعد قطعتين من الجمر تقتربان ، وفجأة قفزت القطة الى شجرة التين في ثنايا الاغصان . اراد ان يناديها .. ولكنه ادرك ان الوقت يدركه وهو لما يقم بعمل شيء من مشروعه . وخطر له وهو يحفر :

« غدا تنتهي السيدة المصونة .. القطة الزيتونية مسكينة . لن تجوع بعد اليوم .. يمكنك ان تلدي وتربي القطط هنا . لن يضطرك احد الى الهرب. سأحضر لك كل يوم اكلا . »

ورغم ان منيرا قد ادركه الخور الا انه ظل مصمما على تنفيذ خطته ومتابعة العمل دون توقف . ومرت ساعة كاملة وهو يعمّق الحفرة ويجمّع التراب جانبا . وفكر ان يأتي بمصباح زيت الكاز . ولكنه عدل عن ذلك وفضل ان يستفيد من الدقائق .. وظل يضرب الارض .

فجأة فتحت النافذة ، وكان ظهره اليها . وسمع صوت زوجته يخترق السكون :

ـ رجعت من المقهى ؟

ظل صامتا .. « من ايقظها وهي في بداية نومها .. كان مفروضا ان اخنقها » . وتردد صوتها من جديد فيه رنة الارتياب :

ـ مالك تقف مثل العامود ؟

واسرعت تنزل الى الحديقة :

ـ ان شاء الله تكون مخمورا ؟ والله املص عينيك .

كان القمر قد كشف الحديقة بكل وضوح . ماءت القطة .. ارتجفت شجرة التين.. اهتزت ساقا منير.. « مضت خمس وعشرون سنة ولم تنكشف لعبتها الا في النهاية . اما لعبتي فقد كشفت في اقل من ساعة. ماذا اقول لها ؟ احفر لازرع شجرة ؟ ولمن اغرسها ؟! لي ، لها ، لاولادي الوهميين ؟ الا يمكن ان ادفعها الى الحفرة ثم .. اطمرها ؟ ولكنها لم تكتمل . لماذا لم تكتمل ؟ » دخلت الزوجة الحديقة وهتفت على الفور :

ـ انت اهبل ! ماذا تفعل في الليل؟

ـ احفر الارض .

ـ انت مجنون !

ـ كنت مجنونا !

ـ مسح وجهه بطرف كمه، وهمس:

ـ الحفرة لم تكتمل .

وثارت الزوجة : ـ ادخل الى الفرفة .. والا جمعت الجيران كلهم ، فاهم يا مخمور !

وبكل هدوء قال : لست مخمورا . .

رمى منير المعول ، وهم ان يدخل الى الفرفة ولكنه تشجع وقال لزوجته:

ـ عليَّ ان اكمل الحفر .

ـ حتى الان لا اعرف لماذا تحفر .

ـ اذهبي .. سالحق بك بعد دقائق .

ـ امامي في الحال .. امامي !

وتظاهرت بالاعياء ، فأسرع منير اليها :

ـ طيب . اهدئي .. كل شيء يهون . وبسرعة تناول المجرف وراح يردم الحفرة .

حلب — جهاد الكاتب

يا ظالماً

أنا لي ثلاث لم أرك
أوقعت قلبي في الهوى
بالامس رق القلب منك
وجفوتني ... وهجرتني
واذا تركت مودتي
ما بين جفني والرقاد
ومعارك ... أصلى بها
أنت الامير على القلوب
لك ان تجور كما تشاء

يا ظالما ما أخرك
ونجوت أنت من الشرك
فلم تراه اليوم رك ؟
لكنني لن أهجرك
فالقلب عهدك ما ترك
غدا عداء مشترك
لآ ذقت نار المعترك
وحبها قد امرك
ولي أنا ان اعذرك

لندن — سعيد العيسى

من « العروة الوثقى »

المرح والهزل في قصر العدل في فرنسا

اضحك مع الموكلين

بقلم جان بول لاكروى ترجمة سمير شيخاني

* * *

ان اشد خصوم المحامي عنفا هو موكله !.. فالموكل كذاب : انه يخفي عنك بعناية ودقة كل العناصر التي تدينه في قضيته . وحتى لو انك صدقت نقيض ما يقوله لك فانك لست واثقا من الحصول على الحقيقة من بين شفتيه . والموكل حذر : فهو لا يستطيع ان يتخلص من الشعور نحو المحامي بما يغذّيه السائح من شعور تجاه صاحب الفندق النابوليتاني ، مثلا ... ذلك بأنه يخشى ان يكون ضحية سرقة او سلب ونهب كما لو كان في الغابة. والموكل ، كذلك ، خبير عليم بكل شيء : فبحجة المحافظة على شرفه او ماله ، تراه يرغب في اسداء النصائح اليك حول الطريقة التي ينبغي الدفاع فيها عن هذا الشرف او المال . وقلما لا تسمعه يقول لك ــ كما قال ذلك « المرشح ــ للدفاع » (الزبون الموكل) لمحاميه بعد ان افاض في شرح قضيته واستنتج المحامي انه لا ريب سيكسب دعواه:

ــ اذن فليس ثمة خطر في رفع هذه الدعوى ؟! ان ما عرضته عليك الساعة كان وجهة نظر خصمي!

والموكل لا يرضيه شيء قط : فاذا ما كسبت له دعواه ، قال لك : « هه ، قضيتي لم تكن قط خاسرة » . ولكنه اذا خسرها فان الغلطة هي غلطتك ــ كن واثقا من ذلك !.

وهذا قول لاحدى الموكلات : « آه ، لا تحدثني بعد الان عن المحامين ... فقد صادفت من المتاعب في قضية ارث زوجي بحيث انني اتساءل عما اذا لم يكن افضل ان يبقى في قيد الحياة ؟! »

وهذا قول لاحد الموكلين المزمنين : «استاذ ، لقد اتهمت مجددا بالاختلاس ... » فقال له المحامي : « هه ، انك ذو سوابق ؟ اخشى ان يكون عقابك اشد من المرة السابقة!» وعندها صاح المتهم الموكل : « ماذا تقول ؟ الم تحقق تقدما مذ ذاك ، يا استاذ ؟»

ونضيف الى ما تقدم ان الموكل ذو روح لاذعة . فهو يجد لذة كبرى في ترديد الاقوال التي تسيء الى المحامين، وذلك على مسامع موكله ... من ذلك قول شهير لبرانتو: « لقد شبهوا المحاكم بالعليق حيث يلتجيء الحمل هربا من الذئب ، فاذا ما اتيح لها الخروج تركت في العليق قسما من صوفها ... »

واسمعوا هذا المثل الايطالي : « الفارة في امان في فم القطة ، اكثر مما هو الموكل بين يدي محاميه !»

والخلاصة ان الموكل امرؤ لا يحتمل ، ولا يطاق ! ومن هنا نجد مبررا لقول بيير لويل الشهير : « لكم تكون مهنة المحاماة جميلة لو كانت تقتصر على الدعاوى . ولكن ، هيهات ، ليس فيها الا موكلون !»

ولكن لحسن الحظ ان الاساتذة الاعزاء لهم دفاعهم : فهم يقدمون السخرية للرد على حذر موكلهم وظلمهم :

ــ قال المحامي برناردو لمعاونه عندما رن جرس مكتبه :

ــ هه ، هوذا واحد يقع في الفخ !..

ــ انحنى المحامي جواكيم على اذن موكله بعد ان لفظت المحكمة حكمها عليه بالاعدام ، وقال له : ــ قل شكرا للمحكمة !

انها افضل طريقة لجعل المتهم المسكين يعتقد انه نال ما يستحق !..

ــ كسب المحامي ديني دعوى اثر مرافعة غاية في القصر. وبدلا من ان يهنئه موكله على ذلك ، قال له بكل جدية انه لم يبذل الكثير نسبة للمبلغ الذي قبضه منه .

فقال له المحامي اذ ذاك : ــ على رسلك ، يا هذا ... سأكمل لك مرافعتي .

وحمل الموكل الى احد الاركان ، واحتجزه مدة ساعة كاملة !

ــ اما المحامي ريمون هيس ، فقد كانت السخرية حقا سلاحه الدفاعي. فقد اتفق ان كان مرة يقضي عطلته في الريف ، فتسلم من احد موكليه ــ ولم تكن براءته مؤكدة ــ برقية هذا نصها : « القضية الصالحة انتصرت !» فكان رده الفوري : « استأنف ! »

وليس ثمة ما يثبط من عزيمة المرافعين ، المحبين للدعاوى . فالواحد من هؤلاء « يحب ذلك » ...

فهناك المترافعة الكونتيس دو بامبيش التي خلّدها راسين في احدى رواياته : « سأبيع قميصي في سبيل ذلك ، فانا اريد لا شيء ، او كل شيء !» .

وهناك المترافع الذي يتحدث عنه الكاتب ميناج : «لقد منحه الملك مبلغا ضخما من المال شريطة الا يترافع بعد ذلك . ويقال انه ، وهو يشكر للملك صنيعه ، رجاه ان يدع له خمس دعاوى او ستا لملء وقت الفراغ !»

وهناك النورماندي الذي يذكره فلوبير . فقد قال له القاضي : « يمكن تجنب الدعوى ،يا هذا ، عليك بالاتفاق مع خصمك والمصالحة !» فكان جوابه : « انا لست بمثل هذه الغباوة .. فالجميع سيسخرون مني اذ ذاك !»

والمترافع ــ على حد قول الاديب الاميركي الساخر امبروز بيرس : « امرؤ يتأهب لترك جلده على امل انقاذ عظامه . »

والمترافع سيء النية ... فالمنشد غوبيل ، خلال الثلاثينيات من هذا القرن ، اقام الدعوى على مدير «مسرح الامبراطورية». وفيما يلي ما شكا منه : كان قد حجز مقعدا

خزامى

•

مروان الخاطري

•

الميادين ـ سورية

أي بشرى من سحيق الغور من عمق الجراح
أرجعت للصبح اشراق الصباح
حملتني فوق متن الغيم سكرانا ، وسكرى
هي مني ، ليس وهما صوتها الداوي ببيتي
هي بنتي ، ليس احلاما وذكرى
وحصادي من جبين الشمس دهرا
أيقظت في الصدر اشواقي وصمتي
وهياما ملأ الدنيا غراما
أي بشرى ، أي بشرى يا خزامى
سكر الروض على سكر الندامى
وترامى ...!!
صوتك الطفل كأيامي كاشعاري القدامى

مرحبا بالنبأ الغالي وأهلا الف اهلا
ما سأعطي للبشير الواقف ، أهدي
أأصوغ الماس عقـدا ، أزرع الاجواء فلا ..
أنثـر النجمات في كل طريق ليس يجدي ..
ليس أهلا

يا ابنتي والشوق كاد الشوق يخطو ..
قبلما اخطو كشاعر
من زمان ضيق الابعاد داج
وأنا لا اعرف البشرى ولا طعم البشائر
أجهل البسمة ، لا أدري لماذا اتلاشى كسراج
هزه ريح وولى كشهاب او بريق ثم ناما
يابس الاجفان مسمول المحاجر
يحفر الموت له قبرا وقبرا
أي بشرى ، ضاع قبري أي بشرى
مات موتي ثم أضحى بعض ذكرى
أي بشرى !!
حولت ناري لظى النيران بردا وسلاما
أرجعت قبري أصيصا للخزامى
ونهارا أسكر الدنيا ضياه

له في الصالة . فلما وصل متأخرا راى سيدة تجلس مكانه . وصحيح انها اعادت اليه المقعد من فورها ، الا انه رفض الجلوس وطلب ان يعاد اليه رسم الدخول ، مرددا : « انا لم استأجر مقعدا ساخنا ، بل استاجرت مقعـدا باردا ! » وانتهت القضية امام المحكمة ، فحكمت علـى غوبيل بعدم صحة دعواه ، وغرّم بالمصاريف .

والمترافع لا يتراجع امام اي شيء !.. ففي القرن الثامن عشر ، ذهبت احدى النساء ـ وكانت طرفا في احـدى الدعاوى ـ لمقابلة احد المستشارين وقد قيل لها انه كاتب الدعوى . وكانت طوال حديثها معه تداعب القطة ! واخيرا قال لها الكاتب : « سيدتي ، لقد اخطأوا في ما قالوه لك: فأنا ليس لي شرف الاهتمام بدعواك !»

فصاحت السيدة بغيظ : ـ ماذا ؟ انت لست الكاتب، وقد داعبت قطتك طوال هذا الوقت ؟!

والمترافع لا يرحم ... في سنة ١٧٤٠ ، دعا الكونت دو مونمور الى قصره على ضفاف نهر ايزير ، رئيـس محكمة شامبيري ، ويدعى غي دو فيسينيي ، الذي سبق ان حكم عليه في احدى الدعاوى . وبعد تناول الطعام ، جعله يمثل امام محكمة صورية حكمت عليه بالاعدام . فقطع رجاله رأس القاضي بالفأس ، وحملوه الى القضاة في محكمة شامبيري !.

سمير شيخاني



الزحف على لغة القرآن

تاليف احمد عبد الغفور عطار ـ ٣٠٤ صفحة ـ حجم كبير ـ طبع دار العلم للملايين ـ بيروت

لقد عرف قرائي وقارئاتي في «الاديب» الاغر ، منذ اكثر من ربع قرن ، انني منذ كنت اكتب لهم ، أفضي بنفسي على سجيتها . فلست اميل الى التصنع عندهم ، ولا ان ابدو مغلّفا لديهم ، فهم عشيرة فكري ، ومثابة نظري ، وموضع ودي. واني اليوم اقدم اليهم كتابا خطيرا يهز كيان الادب والفن والفكر ، ليجردها في هذا الكيان من زيوف الباطل ، ودعوة الهدم والانهيار ، ومن بث الشك في الدرب الكبير الذي ينبغي ان تمشي فيه مواكب العروبية ، في القرن العشرين ، حفيظة على لغة الضاد ، وهي في ظليل وارف من حمى القرآن .

هذا الكتاب الخطير هو « الزحف على لغة القرآن » ومؤلفه الكاتب الكبير الفيلسوف الاسلامي احمد عبدالغفور عطار . ولقد عرفته بضفاف النيل في طويل من السنين ، وداره مرتاد الادباء واهل الفكر ، حين نزل بالقاهرة محققا لكتاب تلخيص الصحاح للزنجاني من نسخ فريدة ، عكف طويلا عليها حتى أخرجها من ظلام غبارها ، وبرودة رفوفها في الاقبية ، الى عالم الطباعة الحديثة ، وكان هذا العمل منه بدء معجميا مضى بعده الى ساح أعم ملأها بجهده ، حتى اخرج « الصحاح » نفسه في طبعة علمية معاصرة ، وكتب مقدمة لهذا المعجم العظيم في تفصيل عجاب في علم المعجمات وضروبها ومدارسها تشهد برسوخ معرفته بأسرار العربية والبيان العربي وجاءت هذه المقدمة جزءا ضخما لستة مثله .

وكان مثل ظافر في معركة خرج منها حديثا ترف عليه اعلام النصر المبين ، حين اخرج للناس في هذه الفترة كتابه هذا الذي يعد بحق رائعة مؤلفاته حتى الان ، وكل من يقرأ هذا الكتاب من مقدمته الى خواتيمه ينساب في دراسته والتبحر فيه بمزيد من الرغبة ، لانه واجد بين يديه صراحة مؤلف لم يألف مذهبه في الصراحة كثير من المؤلفين ، الذين يلتزمون التقيَّة ، ويديرون كلامهم وراء درق من التوريات ، فكانوا عندي مشبهين من يتكمَّى وراء متراس من متاريس اكياس الرمل ليقذف عنها ويتوارى .

اما المؤلف « العطار » فقد بدا ضاحيا ، امام خصوم العربية الزاحفين وبأيديهم معاول التهديم لمجدها الابدي ، وقد تسمَّوا بالشعوبية ودعاة العامية وببغضاء اللغة والبيان ، فسماهم بأسمائهم ، وبرز لهم في ساحة الجدل تارة والقتال تارات ، وكان محاربا وحيدا فتح لنفسه جبهات عديدة ـ كما نقول بلغة عصرنا في الكلام على الحرب ـ واظفره اخلاصه للغة العرب وبيان القرآن بنصر مبين يدحر خصوم هذه اللغة السمحة التي ملأت العقول ، وعمرت القلوب ، واعطت النفوس اسرار الفصاحة والبلاغة ، فشقشقت بها الالسنة بالسحر الحلال والتعبير الذي يزينه الفكر الالهي ، والبدائع الرسولية .

أهدى المؤلف كتابه الى انصار الفصحى المجاهدين من اجل لغة القرآن وآدابها وعلومها . والى المحاربين دعاة المذاهب الهدامة ومقوضي لغة العرب ، ومنتوجها في الاداب والعلوم والفنون ، باشاعة العامية ، لتغليبها على الفصحى .

وتلك ، لعمري ، ظاهرة طرح خطرها المؤلف بين أعين قرائه في العالم العربي ، ليبدو ضاحيا ، فان تخريب لغة قوم ، هو الابادة لهم في الجنس والمجتمع ، فما شيء يجمع الامة على وحدة مثل لغتها ، فاذا اصاب اللغة حيف ، فقد ذهبت ريح الامة ، وكتب عليها العفاء ..

ففي المقدمة ابان المواقف المعادية التي وقفتها قوى الرجعية الغربية والعدوان الداخلي الذي انسكب على اللغة العربية لتعطيل حياتها ، وادخال الضيم عليها ، فذكر حوادث جرت في الجامعة المصرية ، بين جذب ودفع ، في قبول رسائل قدمها اصحابها ، اثارت جدلا ، واحدثت فتنا ، كان موضوعها اللغة والفن والادب ، وكيف برز رجل من رجال التدريس الجامعي بضروب من البلاغة التي ابتكرها لهدم بلاغة عبدالقاهر الجرجاني والسكّاكي والرافعي ، فقلد المستشرقين المفترين . وهجم على حصن العروبية بفأس ليقوضه ، وقد صك حجرا منه فارتد عاجزا ناطحا ، واخذ ذلك الرجل يبث العامية حيثما وجد ، ويدعو اليها ، وهي دعوة مجرمة ينبغي على الجامعة العربية ان تفتح العين لمعرفة السبيل الى درئها عن حمى الامة العربية المعاصرة ، فان التماسك اللغوي هو الذي بقي بين ايدي العرب المعاصرين ، فاذا فقدوا هذا لم يبق في ايديهم شيء ، وذهبوا بين سمع الارض وبصرها .

والاستاذ المؤلف النابغ يبدأ كتابه بفصل يناظر فيه بين الادب والاخلاق والدين ، فيرسم لكل من هذه المعطيات الثلاث مجالا ، وخطة سير ورسالة ويعطي الادب حقه من الزعامة فيقول انه « من اكبر القوى في الوجود » وقد جلا ما للادب من نوبة في مصائر الامم ، وما قدرة الكلمة في حياة الانسان ، والتاثير في الجماهير .

وفي هذا الفصل اتى على سرد للحوادث القريبة في مثارات الهجوم على لغة الضاد ، والدفاع عنها فيما كان يثور من الخصام بضفاف النيل ، ويترامى صداه على العالم العربي ، كالذي نشب بين سلامة موسى والدكتور زكي المبارك ، ومواقف الخصوم والمريدين في كل جانب من جوانب المعركة الفكرية .

وفي الفصل الثاني ، وقف البحث على دعاة العامية الذين يحاربون الفصحى ، فاورد أهم مدَّعاهم بأن « العربية ـ كما يقولون ـ لغة صالحة ، وان قواعدها معقدة ، واعرابها صعب ، وانها تراث بدو لم يكن لهم نصيب من العلم والثقافة والحضارة .»

وقد بسط الكلام على هذه الحملات منذ القديم ، وكيف كان للمستعمرين ايدي الاثام في توجيه تلك الدعوة الهادمة للعربية باشاعة العامية ، اذ كانوا يحاربون لغة الضاد في البلاد التي حكموها من ديار العرب والاسلام .

ثم جعل يفلسف البحث على طريقته ، في عرض المسائل ، ثم لملمة النتائج بعدها واصدار حكم او تبيان علاج للداء ، فعرض تاريخ المجادلين والداعين الى العامية من الغربيين والشرقيين ، وكشف عن مزاعم كل واحد منهم ، وكان باتباع طريقة الكشف عن مثالب كل واحد فيهم ، كمن يضع هؤلاء الاثمين في عراء من النظر الشذر ، ليراهم الجمهور ويعرف فيهم اعداءه الالداء ، الذين يريدون ليقوضوا الدار التي يسكنها فكره وادبه وتراثه البعيد ، وهو اللغة الفصحى ، لغة القرآن .

وجاء دور الحروف اللاتينية ، وكيف هبت فتنتها من ايام عبدالعزيز فهمي باشا سنة ١٩٤٤ الميلادية ، وسنة ١٣٢٦ الهجرية « حين نادى الدكتور داود الحلبي الموصلي باتخاذ الحرف اللاتيني بدل العربي ، ودعا الى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، ذاكرا مزايا الاولى وعيوب الاخرى ».

ثم يصور لقرائه فداحة ما وقعت فيه اللغة التركية من التعطيل ،بعد اتخاذها الحروف اللاتينية بديلا من العربية ، فقطعت صلتها بالعرب ولم تستطع ان تمارس الاتصال الوثيق بالعالم الفربي .

وقد دخل المؤلف في نطاق علمي واحصاء دقيق تتبع فيه الحوادث ، واحدا بعد واحد ، في هذه الدعوة الفاشمة لتبديل الخط العربي وتدميره ، مقرونا بحثه بالتاريخ اليومي والسنوي والمكاني .

وفي الفصول التوالي تناول الرد على من اتهم العربيـة بالقصور عن المعارف الانسانية ، فذكر بالشواهد والمصادر القديمة والحديثة غناء المؤلفات العربية في نطاق العلوم والمصطلحات العلمية ، واعمال المجامع اللغوية والعلمية ، فيما افادته من لغة العرب واتساع معانيها وقبولها للتطور العلمي وملاءمة المعارف الانسانية جميعها . ثم سرد اسماء لمؤلفات في لغة العرب كانت علمية صرفا صدرت في عصرنا ليثبت بهـا قدرة العربية على سلوك الحياة العلمية السليمة . وانني في هذا المجال ذاكر الامير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العربي بدمشق ، وما كان له من الجهود الثابتة في تاريخ العلم العربي ، واثبات قدرة العربية على صوغ المصطلحات وبخاصة ما جاء به هذا الرئيس العالـم واللغـوي المشهور في معجمه الزراعي وما أوجده من الترجمات والمسميات العلمية التي وجد اللغة الضادية ـ كما يسميها في بحوثه ـ ذات ملاءمة تامة لمسيرة العلم ، ونقل تعابيره الى دنياها سائغة مكينة .

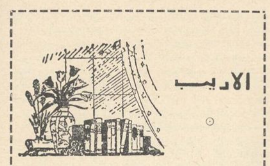
ثم خرج الاستاذ المؤلف من الدفاع عن اللغة الى المنافحة عن الادب عند من انكروه وحجدوا به . وقد شق على نفسه بتتبع مجاميع مـن الصحف يدلك فيها على المقال في صفحته وتاريخ صدورها بالتاريخين الهجري والميلادي ، حتى يبلغ بك اخر الاستقصاء ، وكانت العرب تقول في الاستقصاء هذا المثل : (الاستقصاء فرقة) فوجدت النقيض عند المفكر العطار الذي جعل من الاستقصاء الفة وجمع شمل لبحثه ودرسه.

ويطلع المؤلف الودود بصفحات الود في خلال الدفاع عن الادب تتجلى لديه في كلامه على الكاتب العظيم عباس محمود العقاد ـ عليه رحمات الرحمن ـ واذا تكلم الاستاذ العطار على العقاد فهو كلام الممارس لصحبته سنين طوالا ، والمثافن له في مجلسه كل اسبوع والذي راح وجاء اليه فكان يلقاه العقاد ببشر وحلاوة ، ويعرف للعطار غور فكره ، وصحة ادبه ، ودقة حكمه وغيرته على سمعة العربية ونقاء الاسلام ، فيعرض لك العقاد في فصله هذا بمعارض خصومة الابالسة له ، واستشرائهم حوله ، وضراوة ما لقي من عنتهم ومكائدهم . ولقد كنت بمصر ازور صديقا لي من اعداء العقاد ، وكان هذا الصديق من ذوي المكانة والحكم واهل النفوذ العالي ، فكلمه بالهاتف عدو لدود للعقاد ، قرأ ذلك اليوم في صحيفة « اخبار اليوم » مقالا للعقاد قاصما للظهور يمسه من قريب فهاجت غوائله ، واخذ يقذف العقاد بالهاتف مكلما صديقه ليدخـل السرور على سمعه وكان صديقي هذا يتحرك في مجلسه بعنف ويصفق بقبضة يده على مائدة كتبه ، مهـددا جبار الادب ، متطلعا الى يوم يـزول فيـه .

وقد وجدت الاستاذ العطار يصور لقرائه اشباه هذه المواقف التـي عرفتها بنفسي ، ويحلـل نفوس الشامتين بموت سيد النقد واكبر اديب عربي في هذا العصر والعصور السوابق ، فيسميه القلعة الشامخة للفكـر الاسلامـي .

ويمضي المؤلف الجاهد في اثباج كتابه وهي امواج خلف امواج ، حتى يعتور بحوثا خاصة بشأنه وشأن الارض التي يعيش عليها ، حتى ينهي كتابه بخاتمة دعائية وابتهاليـة .

ولعل قرائي في « الاديب » الاعز يسألون انفسهـم ، ايـن يجدون الاستاذ الكبير احمد عبدالغفور عطار . ولقد كان منذ شهر في بيروت واقفا نفسه على طبع كتابه ، متكبدا مالا جسيما في سبيل سفرته من اجله ، وانجاز ظهوره ، في حلته القشيبة. فكان مثل قائد معركة مهّد موقعها ثم خاضها بنفسه . وهو يعد من المجاهدين المكافحين في هـذا



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر
يناير ، كانون الثاني
تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العـادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية
للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

•

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي
٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي
في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي
٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى
فـي الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنـى

•

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد
الى اصحابهـا سواء نشرت ام لـم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلـة

•

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ — المنزل ٢٢٥١٣٩
Tel : Dir : 223819 — Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت ـ لبنان

•

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البيـر اديب

العصر اعداء اللغة العربية والمغيرين على الاسلام . ما اشبهه بالعطار فريدالدين الفارسي المتأمل ، وان كانت الصوفية بعيدة عنه ، حيث يؤثر السلامة من التكبد ، وهو يسكن مكة ودارته فيها ، وله قلم وفكر مشهوران في دنيا اللغة والادب وعالم الصحافة ، وهـــو الذي بعث اسماعيل بن حماد الجوهري من مراقد معجمه بنشره منذ عشر سنين في طبعة وقف على تحقيقها وكتب مقدمة له في مجلدة ـ كما ذكرت ـ حوت علم المعجمات ومدارسها في لون من الاعجاز وطول الاقتدار ، فاذا ثار في كتابه هذا الجديد الذي سماه « الزحف على لغة القرآن » فانما لمثله اعدت هذه الثورة الفكرية من اجل لغة العرب ، ولولا ما تسخر الاقدار على اطراف السنين رجالا ذوي بأس شديد ، يناضلون فـي سبيل هذه اللغة الخالدة ، لكثر البلاء ، وعز النجاء ، وندر الوفاء .

كذلك ضمّخ الاستاذ الجليل العطار لغة العروبية بعطور من علمه وفلسفته واخلاصه ، في وقت عبقت فيه بهذه اللغة الجميلة الخالدة انفاس نفر ، قال فيهم ابو الطيب المتنبي ، وكأنه عرفهم في اعقاب الزمان ، كما عرف امثالهم في عصره :

ما يقبض الموت نفسا من نفوسهمو ... الا وفـي يده مـن نتنها عود

مكة المكرمة — زكي المحاسني

•

فلسفة اللغة العربية

تاليف الدكتور عثمان امين ـ ١١٠ صفحة ـ المكتبة الثقافية ـ الدار المصريـة للتاليف بالقاهرة

الحديث عن اللغة العربية يتكيء على دافعين ، ويستند الى مبررين. اولهما : خصوبة الارض المختارة ، وثانيهما : عشق الهدف المقصود. أما الخصوبة فاعني بها الثروة التي لا تعد لها ثروة ، وهي تلك التي تكمن في لغة الضاد التي تعتبر وثيقة دولية عريقة . واما العشق فهو عشق هذه اللغة ولا يحبها الا من فهم حقيقتهـــا ، واحس بتراثها الضخـم العظيـم .

ولقد خاضت اللغة العربية مجالات متعددة متنوعة في ازمانمتفاوتة متعاقبة ، وفي النهاية كان النصر ملء يديها ومن بين ما خاضت : حركة (التحرر من قيود الماضي) رغبة في التشكك او انصياعا للنفوذ الاجنبي وتمثل ذلك في حملات التغريب التي شنها الغربيون فـي اواخـر القـرن المنصـرم .

ورأينا من يشن الحملة التبشيرية كمرجليوث وزويمر وغيرهما كما رأينا من يتصدى للرد كالافغاني ومحمد عبده وغيرهما من العـــرب وجوتييه وغيره من الاوروبيين . ولقد استشهد السيد المؤلف بمـا تحدثه اصابع الاستعمار في السنة الشعب الموريتاني وان كان قـد أسقط من حسابه التجربة المماثلة في الجزائر .

واللغة باعتبارها وسيلة استكناه خصائص روح الامة اقوى ما يصير الانسان كائنا اجتماعيا وهذا جزء من وظائفها الاجتماعية كما يتحدث علماء اللغة ولهذا فان المؤلف ينبه الى ان « للغتنا العربية اثرا فى تكوين عقليتنا وتدبير تفكيرنا وتصريف افعالنا وهداية سلوكنا يفوق كل اثر سواه » ص ١٩ . ولها سمات فلسفية اهمها الحب الـذي يصل الى درجة العشق الالهي الذي تناوله افلاطون كما ان لها وهى لغة القرآن ميزة النزعة المثالية .

وأروع ما يحفل به الكتاب هو تفصيل الحديث عن مثالية اللغـة العربية حيث لا تحتاج لفعل الكينونة ، لانها تفضل شهادة الفكر على شهادة الحس وان «الماهية متقدمة على الوجود » ، ويتناول الحضور الجواني في اللغة العربية فهي لا تعني باثبات « الانية » فنحن نقول أفكر ، وليس انا افكر وتشك وليس أنت تشك .. الخ . فاللغـة العربية تساعد الذهن على الانتقال سريعا مما هو معطى وظاهر الى ما هو خفي او باطن ، وتسير بمنطق صاعد من الادنى الى الاعلى ، ومن البراني الى الجواني .واللغة العربية تهتم باللفظ من أجل المعنى ، ففي الخصائص يقول ابن جنى : « فاذا رأيت العرب قد اصلحـوا الفاظها ، وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلـــوا غروبها وأرهنوها ، فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتنويه وتشريف .

ومن الالفاظ ما فقد الدلالة الحسية : فالفعل قضى معناه حكـم واصله للقطع المحسوس ومثله عقل ، وادرك ، وبلغ ولا غرو اذا رأينا الاعراب ميزة اللغة العربية ، واذا رجعنا الى معنى اللفظ وجدنا اعرب عن الشيء : أوضحه وابان عنه ، وكثير من الصيغ لا تؤدي معناها الا بالاعراب ، لهذا حرص ابو الاسود الدؤلي على ان ينبه ابنته الى ان تفتح فاها تفرقة بين التعجب والاستفهام .

يقول بروكلمان : « لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بثروة عظيمة من الصور النحوية ، وبلغت من حيث دقة التعبير عن علامات الاعراب والنحو ذروة التطور في اللغات السامية » . وثروة اللغة العربية لا تقف عند حد ، فوفرة الفاظها ، توافيك بعديد من الصور اللفظيـة للمعنى ، فالصدأ والصدى ، والاوام والهيام.. كلمات تدور في فلك العطش ، الا انها تتفاوت من حيث الدرجة والقوة ، ولهذا فان قدرة اللغة على التأمل الداخلي قدرة عجيبة كما يقرر ماسينيون . امـا الحركة والقوة فمن مميزات اللغة العربية ، فالعرب يطيلون ليحفظ عنهم ، ويوجزون ليحفظ ما يقولون ، ولهذا فان زهير يقـرد ان : « لسان الفتى نصف ونصف فؤاده » . ومن هنـا احتل الشاعر منزلة عند العرب ، ربما لم يتح له ان يحتل ما يدانيها في يوم اخر .

واللغة العربية منبرها شاق رهيب ، حتى ان عبدالملك بن مروان رغم شهرته العظيمة يقول : « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن » وقد استرعى نظر الدارسين صعوبة النطق بالفصحى ، وقراءتها ، وتمثـل ذلك لدى الطهطاوي ، وقاسم امين ، ولكن الدكتور المؤلـف يرد بان ما لوحظ من صعوبة ليس بعيب، بل انه ميزة اللغة العربية، لانها تتطلب الوعي والفهم ، ويستشهد بنص قوي للمرحوم الاستاذ العقاد يرد على تلك المزاعم .

ولكن ما مصير اللغة العربية ؟ ما مصير اللغة العربية في المهجر الامريكي ؟ ما مصيرها على السنة المذيعين واقلام الكتـــاب ؟ . ان الدكتور المؤلف يشير الى شكوى سامي الكيالي ، وشكوى كل مـن تجرح سمعه اخطاء الاذاعة والمحافل ، وغيرها من المجالات حتى قول الشاعر : (فسد الامر كله فاترك الاعراب ان البلاغة اليوم لحن) . واذا كان الدكتور قد ركز تناول هذه الظاهرة الا انه تناول ممتاز خطير . فذلك الهبوط يرجع الى قلة العناية بالتعليم في المدارس والمعاهد المصرية ، وخاصة المدارس الابتدائية . واذا كانت المعاهد العليا للغة العربية متعددة ما بين جامعة القاهرة ، وجامعة عين شمس والاسكندرية ، والازهر . فان هذا التعدد لم يجن علينا ثماره ، فما سر هذا التعدد ؟ « اما آن لنا ان نعنى بالجوهر دون العرض ؟» وما السبيـل الى الاصلاح ؟.

ان المؤلف يرى التزام الشجاعة والصدق ، ووضع اساس جديد لبناء المستقبل ، ولهذا فعلى وزارة التربية والتعليـم بالجمهورية العربية المتحدة ان تضع منهجا جديدا لتعليم اللغة العربية ، تختار له اساتذة من ذوي الكفايات والخبرة باللغات الاوروبية يضطلعون بوضع البرامج لتعليم اللغة العربية لتلاميذ المدارس الابتدائيةوالثانوية وواجب وزارة التعليم العالي ان تقصر التخصص في اللغة العربية على كلية واحدة او اثنتين ، وعلى هذا الامر يتوقف مصيـــر اللغة العربية في الشرق العربي بل في العالم الاسلامي كله .

والى اي حد تكمن المثالية الفلسفية في اللغة العربية ؟. لقد صاح

ديكارت بقوله الشهير : انا افكر فانا موجود ، وقد سبقه في ذلك ابن سينا في مثاله الذي يعرف باسم الرجل المعلق في الفضاء . ولقد عقد المؤلف فصلا عنوانه بين انية ابن سينا وكوجيتو ديكارت ، ورأى أن من المحتمل ان يكون ديكارت قد اطلع عليها ضمن ما ترجم الى اللاتينية من العربية ابان العصور الوسطى ، ويدل على ذلك تشابه كبير بين الانية السينوية ، والكوجيتو الديكارتي فاللغة العربية كما يقرر المؤلف مثالية قبل مثالية ديكارت بمئات السنين .

وفي خاتمة الكتاب يركز المؤلف خصائص الفلسفة الكامنة فيطبيعة اللغة العربية : المثالية الميتافيزيقية والحضور الجواني وصدارة المعنى والاعراب والابانة ورسم الظلال والالوان والحرص على الايجاز والتركيز مع دقة التعبير والدعوة الى الحركة والاتجاه الى القوة وتوخي الوعي والفهم قبل النطق والسمع والكتابة .

يقول ادوارد فانديك منذ اكثر من سبعين عاما : « ان اللغة العربية من اكثر لغات الارض امتيازا وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها والثاني من حيث استيعاب آدابها » . ويقول بروكلمان : « بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه اي لغة اخرى من لغات الدنيا ». ويقول الدكتور عثمان امين : « ان عزة الاسلام في المحافظة على عزة العروبة ، وعزة العروبة في المحافظة على المميزات الفريدة التي تميزت بها اللغة العربية ».

وبعد : فهذا عرض سريع لكتاب ركز احسن تركيز وناقش الامور بدقة وسرعة. وواضح ذلك التناول الفلسفي الذي يبدو اول ما يبدو في عنوانه ثم في ص ٨ حيث يقرر ان اللغة العربية لغة التأمل الداخلي تأمل الفكر والروح وانها ذات خصائص جوانية وانها تعشق عشقا فلسفيا . ثم يبدو اخيرا في الفصل الاخير وعنوانه : « اللغة العربية والمثالية الفلسفية » والحديث عن اللغة العربية مبعثه عشق وتقدير وتحمس لها ففي سلسلة المكتبة الثقافية مثلا كتب عن ثروة تلك اللغة وكان اعظم ما كتب ما افتتحت به السلسلة وهو : الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين للمرحوم العقاد فكان دفاعا عن العربية واحقاقا لحقها . وهنا ليسمح لي السيد المؤلف ان اقرر ان الفصل الاخير في الكتاب مقحم عليه ويبدو غريبا عن جسم الكتاب حتى لتشعر بعد ذلك انك مضطر الى ان تحكم على الكتاب انه عدة مقالات متناثرة رأى مؤلفها وشيجة تشد جمعها فضمها بين دفتي كتاب لانه اذا كان الحديث عن المعنى الفلسفي الكائن في اللغة ، فصفحات الكتاب تؤيد ذلك الى ص ٨٥ فقط . اما اذا كان بعنوان : دفاع عن العربية او سبق العربية او الفلسفة العربية فيمكن ان يدرج الفصل الاخير .

ويسعدني ان اضم صوتي لصوت السيد المؤلف فيما اثاره واشرت اليه بخصوص هبوط مستوى العربية ص ٨١ وما بعدها وتلك اخطر نقاط البحث في نظري واهمها واكثرها واقعية وهي نقطة وان كانت قد اثيرت من قبل لدى الكثيرين ولعل على رأسهم الدكتور طه حسين الا انها حية تتجدد مع الزمن .

وفي الفصل الذي عقده بعنوان الصدارة للمعنى نراه يؤمن بما يقرره ابن جنى في الخصائص رغم ان بعض ما يقوله ابن جنى لا يخلو من المبالغة التي سبق ان لاحظها من قبلي كثيرون من اساتذتنا الذين بحثوا في علم اللغة ، وعلى رأسهم الاستاذ الدكتور ابراهيم انيس عضو مجمع اللغة العربية والاستاذ بكلية دار العلوم . ومن ذلك على سبيل المثال الحديث عن مادة قول ومادة لكم وكانما انتقلت عدوى هذا الايمان فنرى السيد المؤلف يطبق ذلك على اللغة الفرنسية والانجليزية والالمانية .

وفي النهاية يبدو الكتاب بعد هذه الملاحظات العابرة التي لفتت نظري كقارىء ، يبدو اسهاما كبيرا ينضاف الى ما حفلت به المكتبة العربية من ذخائر في الدفاع عن اللغة العربية مثل البلاغة العربية وأثر الفلسفة بها لامين الخولي واحياء النحو لابراهيم مصطفى وتاريخ العرب وآدابهم لادوارد فانديك واللغة العربية واصولها النفسية لعبدالعزيز .عبدالمجيد . الى اخر ما هنالك من ذخائر عديدة تتصدى للدفاع عن لغة الضاد .

بور سعيد — **يوسف حسن نوفل**

•

المقتبس في اخبار بلد الاندلس

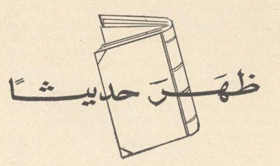
تأليف ابي مروان ابن حيان القرطبي ـ تحقيق عبدالرحمن علي الحجي ـ قدم له الدكتور احسان عباس ـ ٣٢٨ صفحة ـ المكتبة الاندلسية ، دار الثقافة ببيروت

لقد اتيح لي ان اطلع على مخطوطة هذا الكتاب فلاحظت انها مشوهة تشويها بالغا ، غير واضحة في كثير من فقراتها فادركت الجهد الكبير الذي بذله السيد عبدالرحمن الحجي في احياء هذا الاثر النادر تحقيقا ودراسة .

رحب بهذا الكتاب وقدم له الدكتور احسان عباس استاذ الادب الاندلسي بالجامعة الامريكية ببيروت : « لما للكتاب نفسه من قيمة ، وتقديرا للجهد الكبير الذي بذله المحقق تحقيقا وتعليقا ليجعل منه نصا جليل الفائدة ميسرا للدارسين » ص ٩ من مقدمة الدكتور عباس التي جاء فيها ايضا : « لا ريب ان العاملين في التاريخ الاندلسي سيجدون في هذا الكتاب مسعفا على جلاء كثير من الجوانب التاريخية في عهد الحكم المستنصر، بما حواه من مادة وافرة غزيرة شان كل ما كتبه المؤرخ الكبير ابو مروان ابن حيان » ص ١٠ .

ان كتاب المقتبس باجزائه العشرة اهم آثار ابـن حيان التي فقد معظمها وقد اوصلها بعض المؤرخين الى خمسين مؤلفا ، ويدرس المحقق آثار المؤلف وخاصة كتاب المقتبس الذي يتناول تاريخ الاندلس منذ الفتح الاسلامي حتى زمن المؤلف «ملوك الطوائف» ، « ان على هذا الكتاب تعتمد بالدرجة الاولى شهرة ابن حيان ومعرفتنا له » ص ١٢ ، ثم يذكر بالتفصيل الاجزاء الموجودة من هذا الكتاب وما حقق ونشر منها وما هو سبيله الى التحقيق والنشر ، ويتناول هذا الجزء من المقتبس الحوادث التاريخية المهمة التي وقعت في خمس سنوات (٣٦٠ ـ ٣٦٤ هـ / ٩٧٠ ـ ٩٧٤ م) في عهد الحكم المستنصر وفي كثير من هذه الحوادث طرافة تستهوي القارىء والمؤرخ معا وليس هناك استطرادات كثيرة او خروج عن الموضوع الفناه في بعض الكتب القديمة ، ويلتزم المؤلف بموضوعية الحوادث التي تناولها بشرح واف دون ان تضيع اهميتها في اقاصيص مختلفة او تفصيلات غير ضرورية او نفاق مأجور ، ولعل الخطة التي التزمها ابن حيان في كتابه هذا في الاسلوب المتبع الان في اشهر الجامعات التي تفرض على الباحثين الالتزام الموضوعي ، وبالرغم من ان ابن حيان كان احد كتاب المنصور ابن ابي عامر فان كتابه بعيد عن المبالغات التي اضطر اليها احيانا بعض من كتب للحاكمين ، وهذا دليل واضح على ان الرجل عالم كبير وان ما عرف عنه بانه شيخ الادب والمؤرخين في الاندلس امر لا مبالغة فيه ولكن ابن حيان لم يحظ بعد بدراسة موضوعية تتلاءم ومكانته العلمية المعروفة ويأسف المحقق لذلك ويأمل ان يظفر مؤرخنا الكبير بما هو اهل له من تنويه وتقدير ودراسة وافية .

لقد بيّن لنا الاستاذ عبدالرحمن الحجي كيف اهتدى الى المخطوطة والصعوبات الكثيرة التي لاقاها في سبيل تحقيقها : « راجيا ان يكون ذلك اسهاما بسيطا في خدمة تراثنا الاندلسي العظيم » . ص ١٨ ، هذا التراث الذي يتطلع دوما الى جهود الدارسين ولن يكون البحث فيه ضربا من التنقيب عن الآثار القديمة اذ ان في ذلك دراسة تاريخية



● ابراهيم المصري : حياته وادبه ـ دراسة تحليلية ـ تأليف فوزي سليمان ـ ٨٤ صفحة ـ مطبعة النصر بالقاهرة .

● ... وانتظر ـ قصة ـ تأليف امية حمدان ـ ٢٧٨ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة).

● احاديث العشيات ـ تأليف عبد السلام العجيلي ـ ١٦٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ـ مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق .

● انا والناس ـ تأليف حسن عبدالله القرشي ـ ١٧٦ صفحة ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ مطابع دار العلم للملايين بيروت.

● رسائل في حضارة البؤس ـ تأليف ندره اليازجي ـ ١٤٤ صفحة ـ مطابع الف باء والاديب بدمشق .

● المسير الطويل ـ مسرحية ـ تأليف هدى فؤاد زكا ـ ١٣٦ صفحة ـ منشورات المكتبة العصرية في صيدا وبيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة).

● صور قروية ـ تأليف رياض معلوف ـ الرسوم بريشة اسعد رنو ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات دار الكتاب اللبناني ببيروت ـ مطابع دار الكتاب اللبناني ببيروت .

● الايام الميتة ـ قصة ـ تأليف احمد ابو رحاب ـ ٢٠٠ صفحة ـ المطبعة الفخرية (؟) .

● مشاكل نمو الاطفال ـ تأليف ايمانويل ميلر ـ ترجمة سمير عبده ـ ٨٨ صفحة ـ منشورات دار الانوار ببيروت ومكتبة العباسية بدمشق ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الممارسة والنظرية البلشفية ـ تأليف برتراند رسل ـ ترجمة سمير عبده ـ مصمم الغلاف عيسى عيسى ـ ١١٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الانوار ومكتبة العباسية بدمشق ـ (لم يذكر اسم المطبعة).

● فوق الضباب : بناية من الشعر الاجتماعي ـ عبدالله غانم ـ تقديم ميخائيل نعيمة ـ ١٣٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة ريمون الجديدة ببيروت ـ مطبعة المطبعة بجونية لبنان .

● فصول في اللغة والادب ـ تأليف ظافر القاسمي ـ تقديم شفيق جبري ـ ٢٤٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ مطابع دار الكتب ببيروت .

● مذكراتي : صفحات من تاريخ سورية الحديث ١٩٢٠ / ١٩٥٨ ـ تأليف حسن الحكيم رئيس وزراء سورية سابقا ـ الجزء الاول ـ ٤٠٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني واثارهم المخطوطة ـ تأليف الدكتور صلاح الدين المنجد ـ ١١٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● شعراء سورية ـ تأليف احمد الجندي ـ ١٦٠ صفحة ـ منشورات دار الكتاب الجديد بيروت ـ مطبعة دار الكتب ببيروت .

● عشر سنوات في الدبلوماسية في صميم الاحداث العربية والدولية ـ تأليف الدكتور نجيب ارمنازي سفير سورية سابقا ـ ٢١٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● المشرق في نظر المغاربة والاندلسيين في القرون الوسطى ـ تأليف الدكتور صلاح الدين المنجد ـ ١٢٤ صفحة ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ مطبعة دار الكتب ببيروت .

● العهود المتعلقة بالوطن العربي ١٩٠٨ / ١٩٢٢ ـ تأليف وجيه علم الدين ـ ٣٣٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● استقلال ليبيا بين جامعة الدول العربية والامم المتحدة ـ تأليف سامي حكيم ـ ٢٨٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دارالكتاب الجديد ببيروت ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت .

● تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات ـ تأليف المحامي عبدالقادر عياش ـ الجزء العاشر ـ ٦٦ صفحة ـ مطبوعات مركز الدراسات التاريخية والجغرافية بدير الزور سورية ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

وادبية رائعة تكشف لنا امتزاج الحضارات الشرقية والغربية والجهود التي بذلها العرب في اقامة عهد اندلسي زاهر ما تزال عوالمه تشمخ في ارجاء اسبانيا الكبيرة .

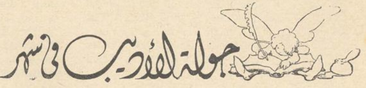
ان حركة احياء التراث الاندلسي بدأت في مطالع هذا القرن ولا يمكن ان نغفل جهود الكتاب العرب والمستشرقين في احياء هذا التراث ، وكان الاستاذ عبدالحليم العبادي من الاوائل الذين نبهوا الى الاهتمام بالتراث الاندلسي ثم توالت بعد ذلك البحوث القيمة والدراسات المستفيضة التي قدمها الاساتذة محمد عبدالله عنان واحسان عباس وحسين مؤنس ممهدة الطريق للدارسين والباحثين .

ان الجمهورية العربية المتحدة اول دولة اهتمت جديا بالتراث الاندلسي فافتتحت معهدا للدراسات الاندلسية في مدريد ويدعوالمحقق الدول العربية ان تنهج ذلك النهج او ان تخصص في جامعاتها اقساما مستقلة تهتم بذلك التراث .

ليس هذا الكتاب تحقيقا لمخطوطة وحسب وانما هو مقدمة علمية في دراسة ابن حيان ، حياته وآثاره ، وقد بذل المحقق جهدا واضحا في شرح كل اسم ورد في المخطوطة والظروف التي لابست الحوادث والمصادر العربية والاجنبية التي تعين الباحث على اطلاع اوسع لما جاء في الكتاب ، والى جانب الاهمية التاريخية للكتاب هناك اهمية ادبية لما حواه من نصوص ادبية ونماذج شعرية تربو على تسع وعشرين قصيدة ومقطوعة شعرية بعضها لشعراء غير مشهورين او معروفين، وقد الحق المحقق في اخر الكتاب فصلا بخمس عشرة صفحة يشرح فيها ويعلق على محتوى الكتاب ، وقد اعتمد في تحقيقه وتعليقه على خمسة وخمسين مرجعا عربيا واثنين وعشرين مصدرا اجنبيا بلغات مختلفة وختم الكتاب بفهارس للنظم والادارة والاعلام والاماكن والامم والطوائف والاشعار ، ويقوم المحقق الان بدراسة موسعة في جامعة كيمبرج تتناول العلاقات الدبلوماسية والسياسية بين الدولة الاموية في الاندلس والدول الاوروبية القائمة انذاك ويشرف على هذه الدراسة المستشرق الانكليزي المعروف الدكتور جون هوبكنز ، وستكون هذه الدراسة فريدة من نوعها اذ لم يسبق اليها الباحثون ، ويؤمل المهتمون بالتراث الاندلسي من المحقق انجازات رائعة في هذا الحقل ، ولا يسعني الا ان اهنئه على جهوده الدائبة في احياء التراث الاندلسي الخالد .

كيمبرج ـ انجلترا

جلال الخياط



شقاء العمل وشقاء الفكر

اني ، كواحد ممن يعنون بشؤون الادب والفكر في الدرجة الاولى ، لا ارى في تنظيم سديمنا الخارجي (التطهير ، المشاريع ، ... الخ) قيمة حاسمة في النهوض والتقدم والاصلاح الا اذا اقترن بتنظيم سديمنا الداخلي .فلست ممن يعتبرون الامر الطبيعي حدثا ، او ممـــن يرون الصدق ، مثلا ، بطولة في المجتمع الذي يسوده الكذب ، ذلك ان الصدق مزية ، لا يكون الانسان ، دونها ، انسانا . هكذا لا اجد مـا اقوله الا ان اطالب الدولة بالمزيد من هذا التنظيم الخارجي ، والمزيد من الصدق والجراة والاخلاص في هذا التنظيم . فهي بذلك ، لا تمارس الا الاكثر واجباتها ضرورة وبساطة .

ولئن كان من البداهة الخلاص من شقاء الجسد والعمل والحياة ، فمن الاكثر بداهة الخلاص من شقاء الفكر والقيم والروح . والتمسـك بالواحد دون الاخر يمزق وجودنا ويزيده شقاء .

فماذا نفعل ، دولة وشعبا ، لتنظيم سديمنا الداخلي ؟ ما هـي انهماكاتنا الثقافية والروحية والانسانية الكبرى التي تكمل انهماكاتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ ما هو نصيب القيم العليا ـ الفن، الجمال، العدالة، الحرية، العظمة الانسانية ... الخ ـ في همومنـا وتطلعاتنا وتخطيطاتنا ، كدولة وشعـب ؟

الافراد ، المؤسسات الفردية لم تعد قادرة على القيام بمهمات تقدم بعض الاجوبة عن هذه الاسئلة . والثقافة ، هي كذلك ، هجرت قصور الامراء واختفت من الزوايا ، واخذت تتجول في الهواء الطلق ، فـي الشوارع وبين الناس.لهذا صارت العناية بها تتطلب وسائل جديـدة بمستوى الحياة المعاصرة ، والوسائل الجديدة تتطلب امكانات جديدة . بعبارة ثانية : صارت الثقافة ، بالضرورة ، مـن مهمات الدولة ، تندرج ضمن خططها ومشاريعها وسياستها العامة .

والثقافة التي أعنيها ليست التربية ، ولا الجامعة ، ولا الاذاعة ، وليست ، بالطبع ، مراكز النشر . الثقافة التي اعنيها هي التي تتمثل بالابداع : هي الشعر ، الموسيقى، المسرح، النحت، التصوير، العلم، الفلسفة .. الخ ، والتي هي جوهر الانسان وجوهر الحضارة . فما هو المناخ الفكري والحياتي ، الذي نخلقه ، كدولة وشعب ، من اجل ان تتفجر هذه الينابيع المحيية ، او من اجل ان تزداد تفجرا ؟

نحن ، كشعب ودولة، ماخوذون بالثقافة العملية ـ لا المتكاملة مـع الثقافة النظرية بحيث تجيء تعبيرا عن حاجات الفكر المبدع ومقولة من مقولاته ، بل الثقافة العملية كفاية بحد ذاتها ـ الثقافة التي توجهها حمى الركض ويحركها سكر المزاحمة ، دونما نظام ولا غاية انسانية . الثقافة التي تخضع الانسان لآلية العمل ، مما يبعـده عن طبيعته الانسانية ، تماما كما تبعده حمى العزلة والانقطاع عن الناس الى الذات والى عطالة الضياع الذهني . الثقافة التي تحول الحياة الى دوامـة لعب ، الى رمية نرد : الى حياة رقمية ، حسابية ، تجريدية ،يابسة، ولا انسانيـــة .

الانسان في مثل هذه الثقافة يفرغ من جوهره الانساني : لا يعود انسانا بقدر ما يصير لاعبا ، يقامر بنفسه وبالآخر وبالشعب كله . يتقلص ، ويستدير حلقة في سلاسل اللعبة الدائرة، الدائخة. وتتقلص اهدافـه وغاياته كلها في حركته اليومية ، ويستعيض عن لغة الانسان المفكر ، بلغة « الانســـان » الشاطر ويستبدل ذاته واعماقهـا ، بالاشياء ومادتها . والنتيجة هي ان العلاقات الانسانية تفرغ ، هي كذلك ، من جوهرها الانساني .لا تعود علاقة انسان مع انسان ، او شخص مـع شخص ، بل علاقة آلة بآلة ، او تابع بمتبوع: علاقة حاجة ومصلحة . ويرتفع المال هيكلا يرفض الذبيحة الا اذا كانت انسانـــا .

هذه الثقافة تشوه الانسان : تمحو فيه صورة الله ، وتحل محلها صورة المال ، فيغيب المقياس الانساني ، ولا يعود هناك معنى للانسان او الحقيقة او الفن او العدالة او الحرية ...

لا أقول ان هذه حالنا .لكنني اقول اننا نواجه خطرا حقيقيا .وبقدر ما نستمر في اهمال الثقافة الابداعية ، ثقافة القيم والاخلاق والفكر والفنون والعلوم ، يزداد هذا الخطر قوة وطغيانا .ويكفي ان نستشف مدى هذا الخطر حين نتساءل في ذات انفسنا : اذا كان لكل شعب شكل خاص من العظمة والحكمة ، ففي اي شيء تتجلى عظمة شعبنـا وحكمته ؟ هل نراهما في هاجس العدالة ؟ في هاجس الاخلاق ؟ فـي هاجس المساواة ؟ الحرية ؟ التقدم؟ الحقيقة؟ الانسان وقداسته؟ العقل؟ الفن؟ الفلسفة؟ العلم؟

ان الشعب ، ككل ، بعيد في اتجاهه ووضعه ، عن الاهتمام الكياني، الاصلي ، الخلاق، المباشر، بهذه القيم والقضايا مجتمعة او منفردة . انه ماخوذ بحكمة الازدهار والاستقرار والسياحة ، وهذا ، على الصعيد اليومي العابر ، واقع ناجح،وقد يكون فريدا .الا انه ، على الصعيد الانساني العميق ، واقع خفيف : انه نوع من الفشل الناجح او النجاح الفاشـــل .

اذ حين نصير المسألة مسألة دور الشعب في التقدم والحضارة ، مسألة الانسان والقيم ، لا تقدم تلك الحكمة الا ازدهار العيش الهزيل، الا « غبطة » الغرق في طين الحياة .فهي حكمة خالية من التطلع صوب اكتناه النفس واغنائها بفتوحات وابعاد انسانية وحضارية جديدة ، وصوب الغايات الانسانية العليا ، وصوب المستقبل والمطلق والمجهول : صوب ما يعتبر المحك الاخير لانسانية الانسان .

صحيح ان العصر الحاضر عصر تخطيط ، الا انه قبل ذلك عصر ابداع. ولئن كان التخطيط هو ان يغير خريطة الحياة ، فان هدف الابداع ان يغير خريطة القيم .وطموح الشعب المعاصر الذي يعيش حقا في النصف الثاني من القرن العشرين ، طموح ابداع وتخطيط في آن .

ان النضال ضد المجاعة والحرمان في الحياة وفي الفكر ، نضـال لا يتجزأ . انه ، بامتياز، نضال الانسان في هذا القرن العجيب حيث لم تبلغ ثنائية الانسان في اية مرحلة من تاريخه هذا المبلغ المتناقض ، المشوه ، ولم يظهر كما يظهر الان ، في لحظة واحدة ومكان واحد : ذروة التخلف وذروة التقدم ، وحشا وملاكا ، لصا ونبيا ...

جريدة « لسان الحال » بيروت — ادونيس

●

يوبيل مجلة « الاديب »

يتنادى فريق من الادباء الذين عاصروا مجلة « الاديب » وكتبوا فيها منذ صدورها سنة ١٩٤٢ ، وعقدوا مع صاحبها الشاعر الاستاذ البير اديب صداقات ادبية يتنادون اليوم للاحتفال بيوبيل هذه المجلة الادبي .

كانت « الاديب » ولا تزال منبرا لكل عربي ينثر وينظم الشعر ، وبواسطتها يتعرف العرب الى نتاج الفكر العربي المعاصر ، وعن طريقها يتلمس المستشرقون تيارات هذا الفكر ويستندون اليها في دراساتهم وتحقيقاتهم .

« الاديب » والبير اديب هما كيان واحد ترعاه زوجة فاضلة هي ابنة الموسيقار الكبير المرحوم اسكندر شلفون .

لم يغادر لبنان منذ ان عاد من القاهرة في سني الحرب العالمية الثانية ، انه اسير منزله وقلما يخرج منه ، فهو بذلك منقطع عن الناس ، ومنصرف الى تحرير مجلته والرد على عشرات الرسائل التي يتلقاها من كل قطر ومصر ...

لقد ثبتت «الاديب» خلال ربع قرن ، فهي تصدر بانتظام وتصل الى قرائها بانتظام .. اما كيف تتمكن هذه المجلة من تغطية نفقاتها فلا اذيع سرا ان قلت ان اجار بيت البير اديب قديم وانه هو هيئة التحرير بكاملها ، وليس للاديب اي مصدر مالي لا داخلي ولا خارجي ، لولا هبات الانصار .

ان صاحب مجلة « الاديب » ملتزم مبدأ الادب من اجل الادب ، فلا ينشر على صفحاتها اية دعاية لحزب او لمذهب او لدولة ان «الاديب» بهذا المعنى عربية عامة ، وبوسعها ان تصدر في حلتها الراهنة في اية عاصمة عربية كانت .

فالالتزام هذا ايجابي ولا شك ، ولكن لا بد لكل مجلة ان تأخذبالاعتبار المقتضيات الوطنية المحلية والتجاوب معها ،والاديب تراعي هذهالمقتضيات دون المساس بالخط العربي العام الذي تنتهجه .

وفي رأيي انه لا بد من اسهام الدولة والمؤسسات الثقافية العامة في تنظيم الاحتفال باليوبيل الفضي لمجلة « الاديب » اما ترك امر تنظيم هذا الاحتفال الى فريق من الاصدقاء فقليل الجدوى ، ويخشى ان يحمل طابعا « عائليا » ضيقا .

للاديب جمهور من الكتاب والقراء العرب ، ونتمنى ان يعكس الاحتفال مشاعر هذا الجمهور وتقديره .

جريدة « الحياة » بيروت — **نجاتي صدقي**

•

« الاديب » القنديل الذي اضاء ربع قرن

تتداعى الاوساط الادبية ، في الوطن العربي ، هذه الايام ، الى تكريم البير اديب ، صاحب ورئيس تحرير مجلة «الاديب» المعروفة بكفاحها الطويل ، على مدى خمسة وعشرين عاما، من اجل خدمة الادب العربي، بصمت وايثار ، بعيدا عن ضجيج الدعاية والاعلان .

وفي الحق ان هذا الرجل ، يستحق كل تكريم منحملة الاقلام العرب، في كل مكان .ذلك انه افرغ نفسه ، بصفاء واخلاص مذهلين ، لاصدار مجلة « الاديب » بشكلها الكلاسيكي الذي يكاد يرسخ في الاذهان ، منذ خمسة وعشرين عاما ، بالتمام والكمال .. كما فتح صدر مجلته للادباء العرب ، من كل مكان ، دون ان يمايز بينهم بسبب من اسم براق او ثروة او جاه..او بسبب من عرق او دين .. بل كان مقياسه الوحيد الذي يزن به الادباء ، هو ادبهم وانتاجهم ولا شيء غير ذلك ، حتى نشأ وترعرع في رحاب «الاديب» مئات الادباء العرب ، من المحيط الى الخليج .. حتى انه يمكن القول ان ما من اديب عربي معاصر ، الا وقد ناله من «الاديب» نصيب من الرعاية والتشجيع ، بقدر ما يؤهله لذلك استعداده الادبي وفطرته وقدرته على الابداع .

والذي يبعث على التقدير لالبير اديب ، انه ظل ينفق على مجلته بنفسه ، بكبرياء وشمم ، ودون ان ينزل منازل لا تشرف الادب او الاديب .. بل ظل يغذي هذه المجلة الرائدة من اعصابه ، ودم شرايينه، ونهار عينيه ، ربع قرن كامل من الزمن ، وحيدا في ميدان المعركة.. دون ان يطاطىء هامته الشامخة لعاصفة او زوبعة ، وكم من مجلة ادبية ظهرت في المعركة لكنها لم تصمد امام التيارات العربية المتناقضة التي تعاقبت على الاجواء العربية طوال هذه الحقبة التاريخية من عمر امتنا، لان الادب الحقيقي عندنا احوج ما يكون الى سدنة حقيقيين من حملة الرسالات ، اذا اريد له ان يعمر طويلا ، وسط الانواء والاعاصير ...

ان «الاديب» تدخل عامها السادس والعشرين ، الان ، وهي اقوى ما تكون شبابا وحيوية ، في حين ان صاحبها نيف الان على الستين ، فيما هو يصر على ان يكون محرر المجلة ومصححها ومصرف شؤونها ورئيس تحريرها ، في وقت واحد ، معا !..

« الاديب » تدخل عامها السادس والعشرين !!!. تلك هي المعجزة بحق وحقيق .. في الوقت الذي نرى فيه دولا كبيرة ، بكل ما لديها من امكانيات ، تسقط فيها مجلات الفكر والادب ، الواحدة اثر الاخرى، بسبب من ـ ضعف السوق ـ في اوساط القراء ..

تحية للاديب ، القنديل الذي ظل يضيء في عالم الادب ربع قرن ، وها هو لما يزل قوي الوهج ، سخي العطاء..

وتحية لصاحبها الرجل الزاهد ، الذي ترفع عن كل الاوسمة والنياشين ـ الرسمية ـ والتقديرية .. فكان خير وسام له انه لم ينل وساما ـ رسميا ـ قط !!

جريدة « السياسة » الكويت — **راضي صدوق**

•

المأساة الصحافية المهجرية

اذا كان لا بد من ميزانية لنتيجة كل عمل ، تقديرا كانت ام حسابا ضابطا لمعرفة الرصيد ربحا او خسارة ، رأينا ـ والمجلة تتخطى بهذا العدد عتبة سنتها الرابعة ـ ان ننصب الميزان وكفتاه متوازيتان والحساب بيننا وبينكم ، على اعتبار اننا (شركاء) في الاخذ والعطاء، فكم اعطيتم انتم وكم اخذتم ، وماذا اعطينا نحن ـ كتابا وصحافيين ـ وماذا اخذنا .

انتم تجار وصناعيون وملاكون ومزارعون ، جمعتم ثروات ضخمة او متوسطة ، بالجد والنشاط وبذل الجهد والعمل المستمر وفي اكثر الحالات بالشرف والاستقامة ، ومعظم ما جمعتم كان نتيجة لتصبب عرق جباهكم وصبركم وفي كثير من الاحيان بالحرمان ، فوفقكم الله وكانت هذه الثروات من حقكم ونصيبكم مكافاة على اجتهادكم .. هذا من انتم .. اما نحن ـ حملة الاقلام المنتجة ـ الذين سكبنا دماءنا في كل جرة قلم وافنينا وجودنا مع كل نقطة حبر وتكاد ايامنا وليالينا لا تكفي لحشد الفكر وتصويب الكلمة واطلاق الحرف نحن ، هذه الفئة التي قيل عنها (واعية) قد افرغت كل وعيها في هذه المنطلقات لتبقى مغمورة بالندى معطرة باريج الرياحين ، ولتظل الحياة جميلة والعقل مستيقظا .

نحن لم يبق لدينا متسع للركض وراء جمع المال ، فقد عقلتنا غرائز صورت لنا السعادة بالوان زاهية لا نتبين من ورائها شبح التعاسة ، وخلقت فينا فكرة (الخلود) فاسرعنا وراء اوهام جعلناها حقيقة منذ وجدت كلمتا (خلود) و (فناء) ... وهذا من نحن ...

فكنتم انتم يا اثرياء الجالية اكثر ذكاء باقتناص مقومات الحياة ، وكنا نحن اوفر عبقرية منكم في تسخير الامكانات لخدمة الحياة نفسها .

والواعون منكم ايها الاغنياء رأوا ان ثرواتهم لا تكفي لبلوغ السعادة ، واذن ، هم يحتاجون الى النفوذ ليطلوا على بعض ما في الكون منجمال وما في الحياة من عز ، ففي اعماقهم اصالة يجب ان تبرز وفي نفوسهم خير يجب ان يشع ، فتلفتوا الينا وكنا بالانتظار وانطلقت اقلامنا لا

كرمى لعيونهم ولا طمعا بمشاركتهم في ثرواتهم ، بل شعورا بواجب ابراز هذه الامكانيات وتوجيه فاعليتها لخير المجموع والوطن ، فكانت اقلامنا اكثر خصبا من جهدهم في جمع المال . وبين لحظات ولحظات برز في الجالية محسنون وغيورون واسخياء ووجهاء كانوا لولا اقلامنا في زوايا ما يشبه النسيان ، ومدحناهم لاعتبارنا انهم لم يعودوا ملك انفسهم بل اصبحوا ملك المجتمع ، وتغنينا بمحامدهم وسرت في الاجواء اناشيد التفاخر بهم ، وقدمناهم علينا في الصدارات وتعدت شهرتهم حدود هذا المحيط الى سواه ، فكانت هذه الثروة الخلقية التي جلتها اقلامنا اعظم وابعد وابلغ اثرا واسمى منزلة من كل ما جمعوه من اموال .

هاكم يا اثرياء الجالية كفتي الميزان ، فتلمسوا ايهما اخذت ترجح.

نحن في ميادين الكفاح نذود عن كرامتنا وهي كرامتكم جميعا وهي قبل كل شيء كرامة وطننا وقضايانا العليا . نحن عرضنا صدورنا لسهام الاعداء فسال نجيعها ممزوجا بحبر اقلامنا ، ودماؤنا دماء اعزاء لا دماء اذلاء .

ونحن في المؤسسات اداة تنظيم وابواق دعاية ونقاط انطلاق ، وكلما شنت عليكم غارة ضربتم العدو بنا ، فكنا دائما القذيفة المتفجرة والصوت الدافع المدافع والصرخة الداوية والسهم الناشب .

لقد استغرقت كتابة هذا المقال سبع ساعات من وقتي ربحتم انتم خلالها ثلاثة الاف او ثلاثمائة الف او ثلاثة ملايين ، توفر لكم ساعات هنيئة في بيوتكم العامرة وسيارات فخمة للتنعم بمتع الحياة وهي من حقكم . ونبقى نحن قابعين وراء مكاتبنا الصغيرة تزور اعيننا من التطلع الى الاوراق وقد اخترقنا بياضها بخطوط كدروب النمل ، عليها لطخ مما نكتب ونشطب ، وتركض في صفحاتها خيالات تضج بالفكر والامال والاحلام ، ونظل نبحث عن معين لسد فراغ ما سفحناه من دم القلب وحبر الورق وجهد العقل .

بعضكم اعطى .ولكن هل بمقدار ما اخذ وياخذ .. وربما تقولون انها لقاء (خدمة) ونحن لسنا خداما لاحد ولا نسير في ركاب احد . في متاجركم ومصانعكم عشرات ومئات الموظفين والعمال يتقاضونكم ما يفرضه قانون العمل كميات وافرة من حقهم لقاء اتعابهم في زيادة ارباحكم المادية ، فهل يصيبنا ما يصيبهم ؟ ونحن بنينا لكم مجد وفتحنا لكم عليها الف راية وقلدناكم الاف الاوسمة من الاعتزاز والتفاخر والجاه.

اطبقوا دفاتركم ايها الاعزاء ، فقد رجحت كفة القيم الروحية ولا يمكنكم التغاضي عنها ، ففي اعماقكم اصالة وفي نفوسكم خير . مع كل ذلك يا اثرياءنا الكرام ، يا مؤسساتنا المحترمة وسفاراتنا الموقرة ، مع كل ذلك ، يقوم من يقول اننا لم نفعل شيئا وانه كان الاحرى بنا ان نتاجر بدلا من ان نضيع الوقت مسودين الصفحات ودائرين على الابواب ... وهذا ما حملنا على ارسال هذا المقال .

نحن نذكركم بالواجب الذي نشعر به في اعماقنا وانما نفعل ذلك لاننا نقيم وزنا لما نكتب. فالاديب وان كان راسماله المعنوي العقل الجاهد والدماغ الذائب ، فله ايضا ثمن لقاء انفاق القوى واستنزاف القدرة . كما تفعلون انتم ركضا من مكان الى مكان او جلوسا تعدون النقود ، وليست (صنعة) القلم ولا (فبركة) الكلام باقل تعبا مما تلاقون .

لقد لمستم فاعلية ما ناتيه والويل لمن رفعناه يوم نصب على راسه لعنة تحطه الى اسفل السافلين ، وطالما رفعت الاقلام عروشا ودكت عروشا .

دملت جراحاتي بفضل تمرسي	ولانها كويت بنار اباني
ولان علة ما يثير تمردي	اعراض خلاني وجود وفائي
العابثون حماقة بمودتي	وانا الذي شرفتهم بولائي
الجاحدون وقد نصبت لعزهم	في كل مرتفع اعز لواء
الخائفون الموت جوعا انهم	موتى وان حسبوا من الاحياء
فاذا ابتهلت الى الهيكل فلتكن	فحوى صلاتك لعنة البخلاء

مجلة «الحياة الجديدة» بونس ايرس — جواد نادر

اكليل من غار على جبين « الاديب »

ليس جهاد الابطال في ساحات القتال باعظم شانا من جهاد الادباء في دنيا الفكر ، ورسالة الاديب في جهاده ابعد مدى وابقى اثرا لانها مرآة تبرز الصور الجميلة وتسطع منها انوار المعرفة التي لولاها لظلت مطموسة في السطور محتجبة وراء الستور .

وها هي مجلة «الاديب» الرصينة تجتاز مرحلتها الصحفية الخامسة والعشرين ، سالكة سبيل الصدق في القول ، والامانة للجمال ، والوفاء للادب والادباء ، لقد تالق في سماء العروبة الصافية نجمها الساطع ، واستمدت حياتها من الاخلاص بالقول والعمل ، والغيرة على الادب الصحيح ، والبحوث النافعة ، في عصر لا يزال فيه الادب العربي في نشأته ، ولا يزال متذوقوه قلة تعد على الاصابع ، ولا تزال فيه الحكومات غافلة عن تشجيع رجال الفكر والقلم ، ومناصرة القائمين بابلاغ رسالتهم الى العالم العربي .

ان مجلة الاديب مضمار يتبارى فيه نوابغ حملة الاقلام في دنيا العرب بما ينثرونه وينظمونه من درر البيان وبما يذيعونه على قراء العربية من حقائق علمية ، وروائع فكرية ، فهي النظام الذي تنتظم فيه عقود الادب، وهي مجلى الفكر ومجمع الاراء ووسيلة التعارف بين الادباء في مختلف اقطار الشرق ، بل هي مدرسة يجد فيها كل ناشيء ما يهديه الى الادب الصحيح وما يملأ به ذاكرته من كنوز المعرفة.

فهنيئا للاستاذ البير اديب منشيء الاديب بعيد مجلته الفضي ، مد الله في عمره واسبغ عليه ثوب العافية ، وادام له صفاء القريحة والوقادة والغيرة المتقدة ، ليظل قائما على خدمة الادب والادباء ، ولكي يتاح له ان يحتفل هو ومعاونوه وقراؤه بعيد الاديب الماسي ان شاء الله.

بكاسين — لبنان — جرجي نصر

●

مطلوب من الدولة مليون ليرة لاجل الادب والادباء

عندما نبحث في جوائز الكتاب ، والجهود التي تبذلها جمعية اصدقاء الكتاب في هذا المجال ، فان قضية الكتاب كلها ، كما قلنا قبل اليوم، تطرح على صعيد البحث ، ولا سيما من زاوية موقف وسياسة وزارة التربية الوطنية .

لقد اعتادت وزارة التربية الوطنية في لبنان ، تخصيص مبلغ عشرة الاف ليرة لبنانية سنويا توزعها « مكافآت ومساعدات » للادباء اللبنانيين كل عام ، وفقا لاعتبارات لم يظهر في مرة واحدة انها كانت دائما اعتبارات ادبية صرفا ، فكان بعض الادباء يعطى بين الثلاثماية او الخمسماية ليرة لبنانية سنويا .. فقط لا غير .. دون اي تبرير او معنى .. هكذا .. الى ان بدلت وزارة التربية موقفها لهذا العام فقسمت العشرة الاف ليرة الى اربع جوائز بمعدل الفين وخمسماية ليرة لكل واحدة منها ...

ومع ان البادرة تشكل تطورا نسبيا في مفهوم التقدير وفي رفع قيمة المساعدة المادية عما كانت عليه ، فان القضية الكبرى تبقى حيث هي ، من ناحية ضرورة تخصيص مليون ليرة لبنانية سنويا في موازنة الدولة — لا عشرة الاف ليرة لبنانية وحسب — لمساعدة الادباء على نشر نتاجهم، وتوزيعه ، وعلى توفير الحياة الكريمة لهم ، معيشيا واجتماعيا و... ثقافيا .

اما اذا بقيت موازنات الدولة اللبنانية ترتفع سنة بعد سنة ، بمعدل عشرات الملايين دون ان يرصد مبلغ المليون ليرة المطلوب ، لاجل الادب والادباء فان قضايا الادب والادباء ستظل يتيمة وستظل الدولة على تقصيرها .

جريدة « الراصد » بيروت — جورج رجي

